A H M A D   S O U S S A



في طريقي إلى الإسلام

د. أحمد سوسة



في طريقي إلى الإسلام/ ديانات
د. أحمد سوسة / مؤلّف من العراق
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف:
فؤاد سليمان وهبي

الصف الضوئي:
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

التنفيذ الطباعي:
رشاد برس/بيروت لبنان

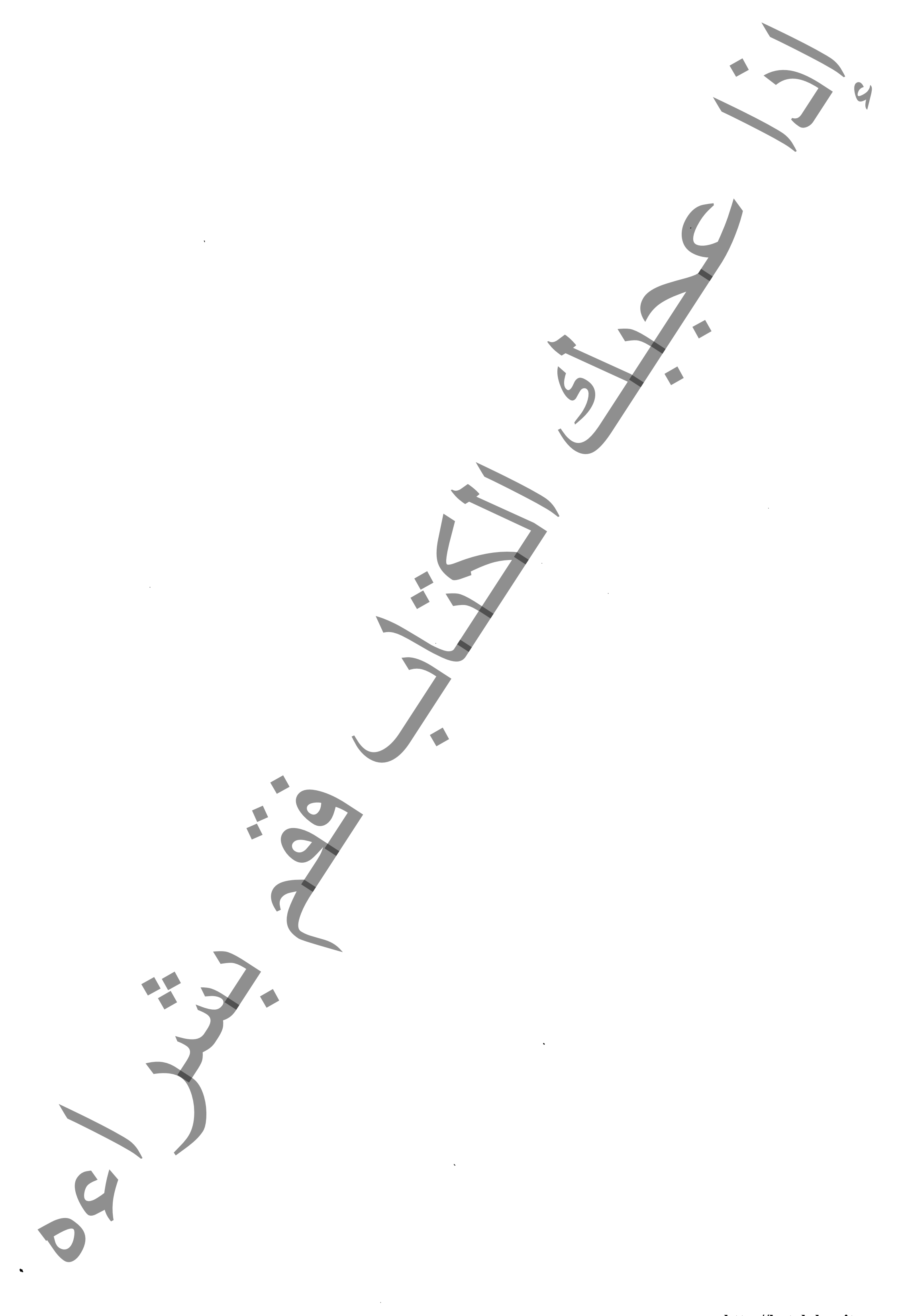
ISBN 9953-36-876-7



د. أحمد سوسة






إذا أعجبك الكتاب فقم بشرائه

الدكتور نسيم سوسة كما عرفته

بقلم:

الدكتور محمد فاضل الجمالي

مفتش المعارف العام في وزارة المعارف العراقية

عرفتُ الدكتور سوسة في سنة ١٩٢٢ حين كان طالباً في الجامعة الأمريكية في بيروت وساعدتهُ في صيف تلك السنة على متابعة الدروس العربية، وقد وجدتُ فيه منذ ذلك الحين شاباً منكبّاً على الدرس والمطالعة والبحث والتنقيب، حرّ الضمير، مستقلاً في التفكير. وقد علمتُ إذ ذاك أنه نشأ في بيئة عربية، في عروبتها وإسلاميتها، هي بيئة الحلة؛ وقد شبَّ وترعرع في جوٍّ عربيٍّ ونشأ نشأة عربية بحتة وهو يحمل منذ صباه عواطف جميلة نحو الإسلام والمسلمين؛ فقد كان معظمُ خلانه من المسلمين وكان يميل إلى الثقافة الإسلامية الحقة. ولمَّا سافر إلى أمريكا وأخذ يتقدّم في الدراسة العالية بقي مولعاً بالكتب العربية والإسلامية، وقد لقيتُه في أمريكا مراراً ووجدتُه متحمّساً للعرب والإسلام أكثر من السابق، وبعد رجوعه إلى بغداد بقي الدكتور سوسة متابعاً دراستَه للكتب الإسلامية ومتعمّقاً في التأمل في الحياة الاجتماعية، شرقيةً كانت أو غربيّة، محاولاً تشخيص أمراض البشرية ووضع علاج لها. وبعد رجوعه من سفرة قصيرة له إلى أمريكا خلال سنة ١٩٣٥ وجدتُ فيه ثورةً نفسيةً عنيفةً ضد المدنيّة المادّية المجرّدة من روح الإنسانية والعدل، وجدتُه يائساً من المدنية الغربية ومن مستقبلها مقتنعاً أنها في حد ذاتها لا تؤمّن السعادة للبشر، كما أنه كان يحلّل الأديان والمعتقدات البشرية واحدة واحدة بكل تجرّد ونزاهة فيجد في كل منها نواقص ـ إمَّا روحية أو عملية ـ إلاَّ الإسلام، فقد وجدته مقتنعاً بأنَّ الإسلام بما يحويه من مبادئ روحية ودساتير عملية هو أفضل واسطة

لخلاص البشرية وسعادتها، ولم تكن هذه القناعة عاطفية لأول وهلة بل كانت قناعة متأتية عن درس وتفكير وبحث وتحليل استمر سنين طوالا. وأذكر أنَّه حلَّ ضيفاً عليّ في أوائل صيف سنة ١٩٢٦ لمدة أسبوع فوجدتُه منكبّاً ليل نهار على دراسة القرآن والقواعد الإسلامية، ولم يشغل فكره شيئ سوى الإسلام والعقائد الإسلامية؛ فهو إذا اعتنق الإسلام والحالة هذه فإنَّما يعتنقه سدّاً لحاجة روحية شَعَرَ بها وإجابة لداعي العقل والمنطق لا يبتغي من وراء ذلك مرضاة الناس ولا يهمه سخط الكثيرين عليه من أبناء جلدته وأعمامه. وليس هذا بغريب من نسيم بعد ما عرفتُ فيه من قوة الإرادة ونزاهة الضمير وشرف النفس وحب البحث والتتبع وحرية التفكير.

بغداد ١٨ تشرين الأول سنة ١٩٣٦

محمد فاضل الجمالي

(دكتور في الفلسفة)

إلى المؤلف

من قصيدة للعلامة الشيخ كاظم آل كاشف الغطا

حَلَفْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ والمصلَّى ... وبالبيتِ المقدّس والحطيمِ

لِذكركَ يا نسيمُ أحبّ عندي ... من الشهدِ المصفَّى والنسيمِ

مدحتكَ يا قليل المثل لمّا ... رأيتك حاوياً خُلق الحليمِ

أقول لعاذِلي لمّا لحاني ... غرامي في محبته غريمي

عشقتُ مكارمَ الأخلاق منه ... وحسنُ الخلق يُعشق في الكريمِ

يفوق بعلمه علم البرايا ... ويبهر حلمُه عقلَ الحكيمِ

تغرّبَ في طلاب العلم غرباً ... وأشرق نورُه فوقَ النجومِ

يحبُّ الخيرَ والإحسان طبعاً ... يقول لنفسه للخير رُومي

وخيرُ طبائع الإنسان فيه ... من المعروف والقلب السليمِ

يَزيدُ تواضعاً إن زاد شأناً ... كذلك شأنُ ذي الشرف القديمِ

فبشرى يا بني الأوطان بشرى ... لهذا القطر بالرجل الكريمِ

تنعمْ يا حبيبي في حياة ... أقول لها مدى الأيام دومي

بأنواع المسرّة والتهاني ... ورغد العيش والشرف الجسيمِ

تفوح الحلة الفيحاء منه ... بطيب الذكر والفضل العميمِ

بحجر المجد والمعروف رُبّي ... وغذّي بالمعارف والعلومِ

وهاجرَ لاكتساب العلم دهراً ... يخاطبُ نفسه بالجدّ قومي

يحققُ سائرَ الأديان مهما ... يكلفه من النصب الأليمِ

كفى الإسلامَ والتنصير بحثاً ... لتمييز الصحيح من السقيمِ

ويسهر دائماً طولَ الليالي ... يقول لكتبه أنتِ نديمي

نديمٌ يُطرب الأفكارَ طوراً ... ويؤنس ساهرَ الليل البهيمِ

نديمٌ لا يمل ولا يعادي ... ولا يفشي لأسرار الكتومِ

الإسلام والنصرانية

عن الإنكليزية ـ مقال وضعه المؤلّف في سنة ١٩٢٩
أثناء دراسته في جامعة شيكاغو الأمريكية

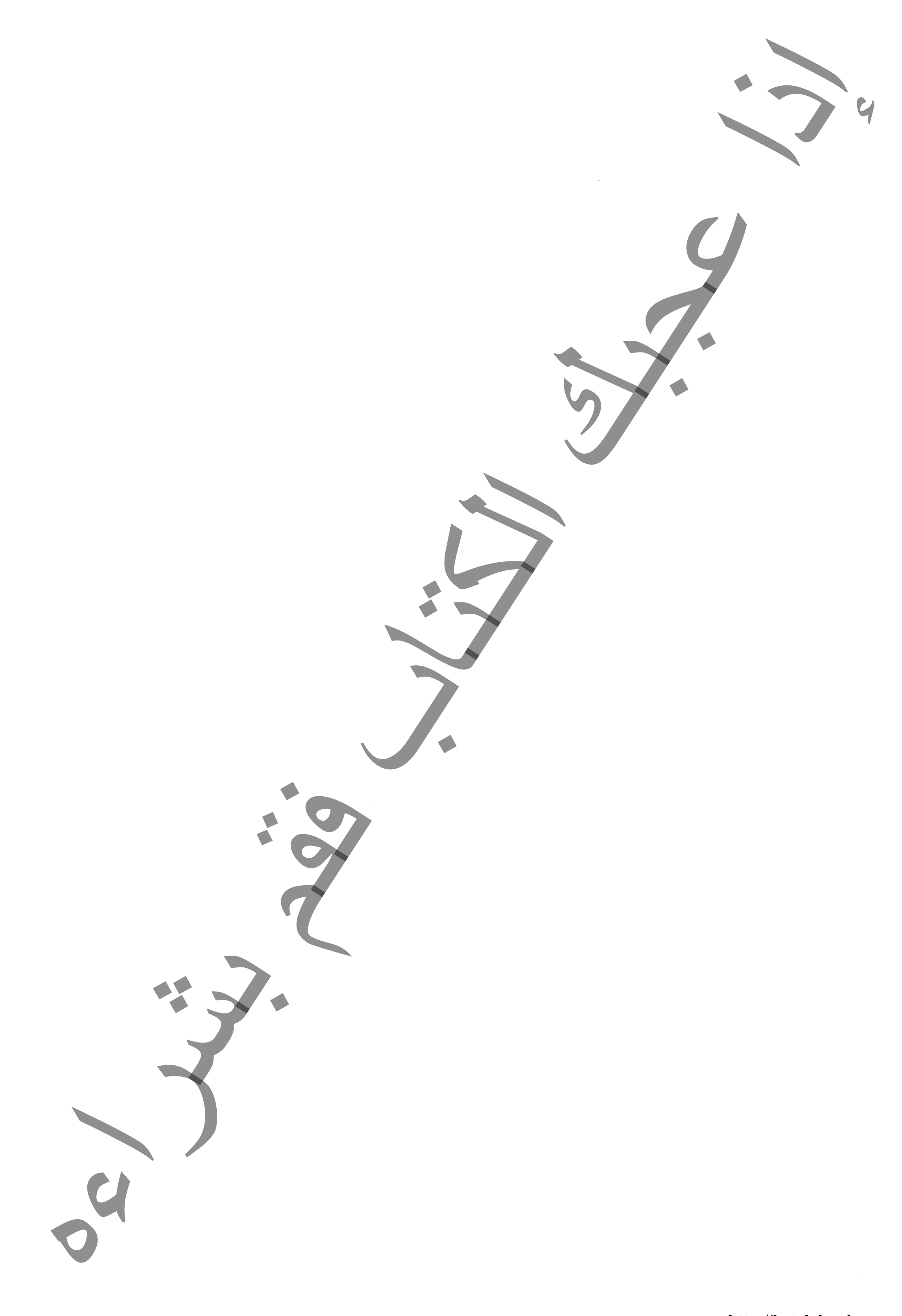
فلسطين بين العرب والصهيونيين

مقال للمؤلف نُشر في جريدة الأحرار البيروتية بتاريخ
٢٨ آب ١٩٣٠

الأعياد العراقية

مقال للمؤلف نُشر في جريدة الأخبار العراقية
بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٣٢

«التّحيّات لله والصَّلواتُ الطَّيِّبَاتُ، السلامُ عليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وبَرَكاتُه. السلامُ عَلَيْنا وعَلَى عِبادِ الله الصالحين. أشهدُ أنْ لا إلٰه إلاَّ الله وأشْهَدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسُولُه»


أذا عجبك الكتاب فقم بشراءه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، على أن هديتني لدينك المعين، فأدركتُ مقام فرقانك المحمدي، ورأيت فيه نور كلامك السرمدي، ومنهاجك السوي؛ أحمدك اللهم على أن ألهمتني الروية والعقل، ونشلتني من هوة الحيرة والجهل، مما دلني على ينبوع الحقيقة، وسلك بي إلى نهر السليقة، فارتشفت بظل إرشادك ماء الحياة الأبدي، وزهدت في التسابق الدنيوي، فكان لي من الجرأة والإقدام للدخول في دينك القويم، وسلوك صراطك المستقيم، وصلِّ اللهم على عبدك ورسولك محمد ابن عبدالله، خاتم النبيين وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه وتابعيه أجمعين، فإنَّك نِعمَ المولى ونِعْمَ النصير.

(أمَّا بعدُ) فإنّي أزفّ كتابي (في طريقي إلى الإسلام) إلى القرّاء من أبناء وطني بصورة خاصة وإلى إخواننا في الدين والعروبة بصورة عامة، وإنَّ أملي أن يشاركني القارئ بشعوري العميق وإحساساتي الفيّاضة، وأنا على ظهر سفينة التدقيق والتوغل في بحر التصورات لمعجزات هذا الكون وطلسم هذا الوجود قاصداً عاصمة الحقيقة في مجال العالم الروحاني.

ولا بدع فإنَّ مجرّد البحث في أمور الدين هو مما يثير عاطفة الإنسان ويجعله يطير بأجنحة التأمل إلى عالم غير عالمه، فيحجم ذاهلاً متسائلاً عن أمر كل ما يحيط به من عجائب المخلوقات، وعظمة الكون وأسراره، وإنَّ المرء الصادق في نيّته والذي يفيض قلبه بالإيمان والتقوى، وله في اليقين شعور سام وحسٌ نام، فإنّه ليرى في الدين القويم المصباح المنير والمرشد الأمين ليهتدي به في حلكات هذه الحياة إلى طريق السعادة الإنسانية والقناعة النفسية.

إنَّنا نعيش في عصر قد تزعزعت فيه أركان العقيدة الدينية، وأخذت الفلسفات المادية الحديثة تنازعها البقاء، حتى كادت تهدم صروحها... فيقولون إنَّ العلم

والدين لا يجتمعان، وإنَّ القوة والسيطرة هما في جانب العلم، فوجب علينا الانخراط في سلك الهيئة العلمية القويمة لننال قسطنا من المادة والسلطان، فيتسنى لنا الدفاع عن كياننا والنهوض إلى المجد والعلاء.

ويدين هؤلاء بدين الفلسفة الحسّية التي لا تعتقد بغير ما تلمسه وتحس به أو تدركه أو تتقرب منه، وما كان غير ذلك فهو خرافة وتضليل، ويؤيّدهم في ذلك بعض الفلاسفة الذين يحطّون من منزلة الإنسان فيضعونه في مصاف الحيوان الأعجم بدليل قرابته من القردة، ويقدّمون غير ذلك من الاستقراءات لتأييد مزاعمهم بأنَّ زمن الدين مضى وأن عهد الأديان انقضى وأنَّ الدين قد لعب دوره القاسي على مسرح الإنسانية حسب نظرهم. وهذا الدور قد انتهى بنتيجة انتشار العلم وظهور الحقيقة فهو اليوم أشبه بالخيال والخرافة من الوجود والحقيقة.

ومما يجدر ذكره أن هذه الفلسفة التي لاقت بعض الرواج بين ذوي العقول الضعيفة المغلوبين على أمرهم والذين قد خدّر سحر إنتاج المدنية المادية أعصابهم قد اصطدمت بفلسفة وجود الروح المبنية على الأبحاث في علم التنويم المغناطيسي (ابنوتزم) واستحضار الأرواح (اسبرتزم). وفي الحق أن فلسفة الإلحاد قد تلاشى تأثيرها في الأذهان إزاء فلسفة وجود الروح الإنسانية التي اعتنقها معظم كبار فلاسفة العصر الحاضر.

وهل لنا أن نسلم للفلسفة القائلة بأن العلم ينافي الدين؟!.. فإذا كان الأمر كذلك فكيف إذن نهض المسلمون تحت راية الدين الإسلامي وبحافز الهداية والإيمان دوّخوا البلاد واحتلّوا معظم دول المعمورة، وقد كانت أنوار العلوم والمعارف تضيء الكون إلى جنب نهوضهم واتساع سلطانهم؟!

وإذا كان التقدّم والرقي لا يتفقان مع مبادئ الدين فكيف إذن ازدهرت الحضارات المصرية والأشورية واليونانية القديمة بما في ذلك العلم والصناعة والزراعة والتجارة وكل ناحية من نواحي الإنتاج الإنساني ازدهاراً بهر العالم ولم يزل موضع الإعجاب حتى يومنا هذا، مع أن الأساس لهذه الحضارات كان أساساً دينياً؟!..

إنَّها حقاً لفلسفة واهية قد تستميل محبّي الشهوات الحيوانية فيجرون وراء ما تهواه النفس على حسب فلسفة الحرية الشخصية وما أقرب ذلك إلى الفوضوية أو الشيوعية وغيرها من الفلسفات الهدّامة التي تهدّد البشرية جمعاء في عصرنا الحالي!.

إنَّ مَنْ درس النفسية الإنسانية درساً عميقاً ووقف على أسرارها وكل ما لها من التعلّق بالدين والفلسفة واطلع على علاقة الإنسان بالوجود يتضح له أن الإنتاج المادي الحالي والاسترسال في جشع الشهوات الحيوانية هما أخطر شيئ على الإنسانية، وإن العلم المادي الذي لا تردعه الإرشادات الإنسانية الروحية هو باصطلاح موجز «الانتحار» بعينه... ﴿**قل هل نُنبّئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**﴾.

إن العامل الروحاني هو الدواء الوحيد لأدواء البشرية الحالية، وإنَّه المرهم الفريد الذي يعالج جراح المدنية المادية فينقذها من شرورها وعللها، ومثال العلم المادّي بدون المرشد الروحاني مثال مَن يضع المدية في يد الغلام فيضعها ببطنه وهو جاهل ما يفعل حتى يقضي نحبه فيموت، لأنَّ العلوم المادية لا تقوم مقام الدين في تزويد النفس باطمئنانها وارتياحها من الناحية الروحية، وعندي أن المدنية الحقيقية هي تلك التي تحتوي على رقيّ مادّي وكمالات روحانية في آن واحد، وأن السعادة الإنسانية لا تتم إلاَّ إذا حصل نعيم الروح والجسد وذلك باتحاد المدنية المادية المفيدة والاتجاه الروحاني السامي.

ومما يؤسف له أن نرى هذه السموم نفسها التي يبثها غلاة أصحاب المذاهب المادية قد نقشت في نفوس معظم أفراد الشبيبة الإسلامية الذين ارتضعوا ثدي العلم الغربي، وقد غدا هؤلاء ـ إمّا لجهلهم أو لعدم إمكانهم ضبط أنفسهم من الانجراف في تيار القوة المادية التي شلّت تفكيرهم وأعمت بصائرهم ـ يناصرون مثل هذه الفلسفات الفتّاكة، فكانت النتيجة أن فصلتهم هذه السموم عن مجموعهم، فهم لا يجدون لذة في مخالطة عامة القوم ولا يكلفون أنفسهم عناء درس أحوالهم ولا العطف على ما هم عليه من البؤس والتعاسة وما يقاسونه من الويلات ليتسنى لهم تخفيف وطأة مشاكل حياتهم، ولاسيما أن للبعض من هؤلاء الشبان مراكز لا بأس بها تمكنهم من إبراز مجهوداتهم في سبيل الخدمة العامة. وهنا الطامة الكبرى والبلية العظمى؛ طبقة متعلمة من قلب الشعب تنخلع عن المجموع فتنفرد في مشربها وتعتزل في مسلكها ورغباتها كأنَّها غريبة عن بني جلدتها. فهذه الطبقة طائفة في هذا الكون ليس لها أية وجهة معيّنة في الحياة، تراها تسعى وتركض وراء المادة بكل وسيلة لإطفاء شهواتها الحيوانية، وكلما كثرت الكماليات وزادت إنتاجات القريحة الغربية من المواد الساحرة استرسل هؤلاء في سعيهم للحصول على المال وغلوا في ذلك حتى استباحوا في هذا السبيل أنواع القبائح كالرياء والمراوغة والكراهة

والتزاحم الخ الخ. فصاروا يشعرون بالحط من كرامة أنفسهم بل يمقتونها ويمقتون الإنسان ابن جنسهم.

عجيب أمر هذه الطبقة من شبابنا المتعلمين! فلا هم بغربيين على حال ولا هم يشعرون في أنهم من قلب الشعب وله يعودون، ومن أخطر الأمور على الشعب وأقربها إلى الانحطاط والتدهور أن يكون بعض الرجالات في العنصر المتعلم لا وجهة لهم في الحياة. وما يقال عن هذه الطبقة من الشبان المتعلمين ـ ومع مزيد الارتياح نقول إن عدد أفرادها قليل ـ ينطبق على البعض القليل من رجالاتنا الذين هم أقرب إلى الشيخوخة والذين يشغلون مناصب هامة في دوائر الدولة، فداهمتهم مادة المدنية الساحرة وهم ضعيفو الإرادة فخضعوا لعبوديتها مستسلمين.

ونعود إلى الموضوع فنقول: ـ إن نصيب الدين من الحياة البشرية هو نصيب البقاء لا الفناء، وأن ما نراه اليوم هو في الحق نضال القوتين على مسرح الإنسانية، أي قوة المادة وقوة الروح المتنازعتين على السيطرة، وإذا كانت المادة هي الغالبة في العالم الغربي في هذا العصر فلا تلبث قوة الروح ردحاً من الزمن حتى تثور على المادة الغاشمة السامة فتسعى في هدم صروحها، ولا شكّ في أن النجاح يكون حليف القوة الروحية لأنَّ الإنسان الواقف الآن وقفة المتفرج إزاء هذا النضال يميل ميلاً فطرياً إلى جهة المعنى والروح، وإن اندفاعه في التلذّذ بملذات المادة الساحرة هو حياد عن طبيعة الخلق الإنساني السامي، فبعد أن يرى ما يرى من قوة المادة الهدّامة للجنس البشري والفتاكة لسعادته ويوازن الأمور في قسطاس العقل والحس سوف يرمي بنفسه عن طيبة خاطر وارتياح في أحضان الدين القويم الذي يرجو بواسطته النجاة والسعادة.

وإنّي أكتفي في هذا الصدد بتدوين ما يعتقده (أرنست رينان) أحد كبار فلاسفة الأوروبيين بهذا الشأن حيث يقول:

«من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبُّه وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضائق الدنيئة للحياة الطينية».

ويؤيد (أرنست رينان) فيلسوف آخر لا يقلّ عنه شهرة وهو (أجوست سبايتيه) فيقول: ـ «... إذن فالدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلاً عن عدم نضوب

ينبوعه بتمادي الزمن، نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة»[1].

ولما كنت خصصت مقالاً خاصاً للبحث فيما يتعلّق بالعلاقات الدينية ودرجت فيه معتقداتي وآرائي الدينية والعوامل التي عملت عملها في فؤادي فهدتني لاعتناق الدين الإسلامي الحنيف، أرى أن نتحول الآن إلى البحث في الموضوع الذي من أجله وضعت هذه المقدمة، وأقصد بذلك تدوين نبذة عن ترجمة نشأتي لما لذلك من الأثر العظيم في تكييف اتجاه ميولي في الحياة ونمو تفكيري وتكوين عقليتي مما أدى بي إلى سلوكي المذهب الذي سرت فيه، وعليه فأقول: ـ

في ذلك العهد الحالك، عهد الحكومة العثمانية المظلم، في السنة الثانية من القرن الذي نعيش فيه اليوم، شاءت الأقدار أن تقذفني بين أحضان هذا العالم الفاني، عالم المعجزات والغرائب فكان لي من الحظ الوفير أن خلقت في وسط أسرة لا بأس في رفاهيتها ففتّحت عينيّ في دار بسيطة لا تزال قائمة في أحد الشوارع الضيقة في بلدة الحلة الفيحاء.

وكانت هذه البلدة ولا تزال مذخر العراق وأنبار البلاد تجهّز الحبوب للاستهلاك والتصدير، فكان معظم رجالها البارزين يتعاطون تجارة الحبوب، وكانت هذه الحبوب مصدر معظم المعاملات، فلارتفاع أسعارها أو هبوطها الشأن المبين في تكييف حياة أكثرية سكان البلدة كل بنسبته.

وتقع الحلة في محيط الفرات الأوسط، في وسط محيط ريفي زراعي، فكانت بسبب موقعها هذا منزوية عن العالم محافظة على عادات أهلها وتقاليدها، وكان يتجلى فيها مظهر البساطة والسكون بأجلى بيان، وفي كل وقت ومكان ـ ذلك المظهر الذي يجمع بين البداوة والحضارة، فيكوّن من امتزاج العنصرين واحتكاكهما حياة تعاون وتآزر تنطوي على تبادل في الأفكار واشتراك في العواطف والميول؛ وإذا ما خرجتَ من دارك في الصباح وسرت في أزقة المدينة وأجلت نظرك فيها، فكأنك تشاهد مسرحاً اجتمع عليه الأفندي والفلاح والشيخ والبدوي، الحضرية المحجبة والبدوية السافرة، الفارس على ظهر فرسه والراجل المتأمل، والتاجر والعامل، الكل مجتمعون ليمثلوا آيات الحركة الفطرية التي لا يشوبها اصطناع ولا زخرف؛ وأهم ما يسترعي نظرك قوافل الجمال ترى فيها الإبل تتهادى

---

(١) راجع في هذا الكتاب البحث تحت عنوان «العقيدة الدينية وشبابنا المتعلمون».

في مشيتها في الأزقة والشوارع بين هذه الجموع دائبة في نقل الأطعمة إلى المذاخر، فلا يعيقها نهار ولا يروعها ليل - حركة اجتمع فيها العمل والهدوء والسكينة في آن واحد، فكان فيها من آيات القناعة والاطمئنان ما جعل الجميع يحمدون ربهم على نعمه وخيراته.

في هذا المحيط، بين البلدة وأريافها، قضيت أخصب أيام حياتي وأسعدها، مترعرعاً بين أحضان الطبيعة، متزملاً بعباءة البساطة والطهر، محباً للإنسانية، مستسلماً لقدرة الخالق حتى العقد الثاني من عمري؛ ولحسن الحظ قد وقاني هذا المحيط من الانجراف في تيار الروحية اليهودية بما في ذلك من تقاليد وعادات وأخلاق وعصبية، إذ كان قليل من غير المسلمين في هذا الوسط ولم يصادف احتكاكي بأحداث اليهود إلاّ في أيام دخولي المدرسة مما سبَّب نفوري وثوران عواطفي، وسيأتي البحث في ذلك فيما بعد.

وكان والدي رجلاً صالحاً مستقيماً في معاملاته صادقاً في مخالطاته صريحاً في كلامه لا يعرف الكذب والمراوغة مما جعله محبوباً لدى عارفيه من المسلمين وغير المسلمين، حتى كان عضواً في مجلس إدارة الفيحاء وكان له منزلة ذات شأن محترماً لدى الجميع، ومنه تعلمت الاستقامة والصراحة فأصبح فطرة فيّ حتى كثيراً ما كنت أعترف له بحقيقة الأمر حينما كان يسألني عما إذا قمت بهذا العمل أو ذاك بالرغم من علمي بما يترتب على ذلك من عقوبة ومشاكل.

وكان والدي قد أخذ على عاتقه تعليمي القراءة والكتابة بنفسه وذلك في اللغتين العربية والإنكليزية، وكنت أكره هذه الدروس وأمقتها إلاّ أني كنت أسعى في إتقانها لإرضاء والدي كي أستغل رضاءه لطلب موافقته على بعض الأمور التي كانت مخالفة لأهوائه ومشربه كركوب الخيل وغير ذلك من أسباب لهوي التي كانت تهواها نفسي.

ولم يكتف والدي بذلك بل خصَّص لي أستاذاً يدعى عبد القادر لتدريسي التركيَّة بالنظر لما كان في ذلك الزمن من النفوذ لهذه اللغة في البلاد، الأمر الذي زاد في تذمري إذ كان ذلك سبباً لحرماني من اللعب في رائعة النهار أثناء حضور المدرس بخلاف ما كان الحال في تدريس والدي الذي كان في معظم الأحيان يجري ليلاً.

وما مضى زمن طويل على ذلك حتى أنشئت في الحلة مدرسة أهلية تقوم بإدارة شؤونها الجمعية الإسرائيلية الإفرنسية فكانت تُدرَّس فيها الإفرنسية، وهي

اللغة الأساسية للتدريس وقليل من العربية والتركية، وما كان من والدي إلاَّ أن أرسلني إلى هذه المدرسة، وهناك التقيت للمرة الأولى مع الأحداث من الإسرائيليين، فحزنت حزناً شديداً لتأسيس هذه المدرسة، ولكن لم يكن لي من مفر فكان عليّ أن أطيع أمر والدي بوجوب الالتحاق بها؛ أمَّا الطلاب فبالرغم من كون المدرسة إسرائيلية، كان بينهم عدد من المسلمين والبعض من المسيحيين، وكان لي ميل خاص يدفعني للاختلاط مع الأحداث المسلمين وإني لم أزل أتذكر حادثاً كان له الأثر الشديد في نفسي وأنا على حداثة سني وجهلي الأمور التي علّمني إياها العلم فيما بعد، وخلاصة ذلك أني كنت قد تعرّفت على حدث من إحدى أُسَر موظفي الحكومة يدعى (قدري)، وكان هذا الحدث غريباً في الحلة حديث العهد فيها إذ جاء مع أُسرته التي نقل معيلها إليها، وقد صادف أن مدرِّس التركيّة (وهو نفس المدرِّس الذي كان يدرسني الدروس التركيّة الخصوصية) كان يعتني بي بصورة خاصة كأحد أولاده، ولما جاء (قدري) المدرسة استدعاني وطلب إليّ أن أتصل بهذا الحدث وأن أقوم بواجبي تجاهه بصفته ضيفاً وغريباً، فكان ذلك مبعثاً لسروري لما شعرت به من العزة الشخصية بوضع أستاذي ثقته فيَّ واختياره إياي من دون بقية الطلبة في الوقت الذي كان في الأحداث المسلمين مَن هم أقرب مني للقيام بهذا الواجب؛ وعلى كل وجدت في (قدري) خير رفيق في اللعب وسرعان ما أصبحنا صديقين متآخيين، فصار (قدري) يحضر إلى محل سكناي خارج أوقات المدرسة وكنا نلعب معاً في الشارع ساعات طوالاً حتى جاء أحد الأيام بهدية معه وقدّمها إليّ تحتوي على عجلة من الأخشاب وطير جميل مهيض الجناح، فكان سروري عظيماً وأبديت عاطفتي لرفيقي بإطالة ساعات اللعب ولم نفترق ذاك النهار حتى الغروب، فدخلت على والدي مبتهجاً حاملاً طيري وعجلتي غير أنه ما كادت عيناه تقع على ما حملت حتى تقرّب إليّ سائلاً: «وكيف حصلت على ذلك ومَن أعطاك إياها؟» فقصصت عليه قصة (قدري) كما وقعت، إلاَّ أن ذلك قد زاد في غضبه وأجاب بصوت الآمر قائلاً: «يجب إرجاع ذلك في الحال وعدم الاختلاط مع هذا الحدث بعد هذا». ولشدّ ما كان استغرابي لموقف والدي بهذا الشأن، وإني لم أجد في هذا الحدث غير اللطف النادر والأخلاق الطيبة والود الخالص سيما وقد كان غريباً في الفيحاء، فكان الميل للتمرد يساور أفكاري إذ كان يصعب عليّ أن أقابل قدري بهذا الجفاء بدون سبب مبرر، وكان بودي أن أسأل والدي أن يفسر لي أسباب ما اختاره لي ولكني لم أجرؤ على ذلك وأنا على حداثتي التي كانت تستوجب الإطاعة العمياء بدون ما سؤال أو مناقشة، أمَّا الآن

عندما أستعرض أمامي ذكريات الماضي فيما يخص تفاصيل هذه الحادثة فأعلم أن الأسباب هي الغريزة اليهودية التي لا تقبل الاختلاط والامتزاج، ولا شك أنَّ والدي كإسرائيلي نشأ بين أبناء الطائفة الإسرائيلية قد تغلبت عليه العاطفة الجنسية الدينية في هذه القضية.

ولا يخفى أن هذا الحادث ـ بعد أن أصبحتُ مضطراً لإعادة هدية (قدري) ـ قد زاد في كراهيتي للمدرسة، وكان من حسن حظي أنْ قصر عمرها فلم تلبث طويلاً حتى أُغلقت أبوابها لأسباب اقتصادية على ما أتخطر، فرجعت إلى حريتي وكانت نتيجة ذلك أنْ دخلت حياة جديدة كنت في خلالها بطبيعة الحال والضرورة بعيداً عن كل شيء إسرائيلي عدا ما يتعلّق بالعائلة.

ولشد ما كانت دهشتي حينما أتاحت لي الصدف منذ ست سنوات مضت مقابلة أستاذي (عبد القادر) فقد أثار هذا اللقاء ذكريات جميلة ومؤلمة في آن واحد، فقد وجدت مدرِّسي القديم منكباً على منضدة بسيطة في حانوت صغير وإلى جانبه المراجعون من النساء والرجال يكتب لهم رسائلهم وعرائضهم بأجور زهيدة يتقاضاها لقاء ذلك. وكم كان سروره لمشاهدته إياي فصافحني أحر مصافحة رامياً جانباً علبة (البرنوطي) التي لم يفارقها قط إلى ذلك اليوم، وهذا (البرنوطي) نوع من التتن الناعم المعطّر يُستعمل للشم وعادة تملأ المناخير منه بين وقت وآخر ويدمن عليه المرء كالإدمان على الدخان. أجل لقد كان لهذا اللقاء أثر عميق في نفسي لما أثاره فيَّ من ذكريات عهد صباي فذكرني أستاذي بأيامي وذكّرته بما نسي منها وبالأخص ما كان يعتاده من ضربي على رؤوس أصابعي بمسطرته ذات الجوانب الحادة، فقال: «يا عزيزي لقد كان ذلك عن حسن نية ولم أكن أقصد بذلك غير صالحك»، ويجب أن لا يغرب عن البال أن الضرب كان في ذلك الزمن إحدى الطرائق المألوفة في سلك التدريس.

وقد كانت أشغال والدي تتطلّب المداخلات واشتباك العلاقات بالمحيط الزراعي الريفي بالنظر لما كان على عاتقه من إدارة المزارع التي كان موكلاً بالقيام بشؤونها والمشارفة على كل ما يتبع ذلك من المعاملات التي تقع بين الزراع والسراكيل من جهة وبين هؤلاء والملاك من الجهة الأخرى، وعليه فقد نشأت والاتصال بأفراد مختلف القبائل وشيوخهم مستمر، فرسمتْ عاداتهم وأخلاقهم وطريقة معيشتهم على جبيني طابع العروبة الحقيقية وما في ذلك من المبادئ الإسلامية النبيلة.

ولا يخفى أن النظام الإقطاعي كان سائداً حينذاك وكان الملاك أو وكيله يتخذ الإجراءات التنفيذية اللازمة لتسيير الأمور حسب العرف الجاري.

وعليه فإنَّ السلطة المحلية كانت في كثير من الأحيان تزوّد الملاكين بأفراد من شرطتها كان يطلق عليهم كنية (جندرمة) فيصبح هؤلاء تابعين لأوامر الملاك الذي يكون مسؤولاً عن إعاشتهم وتجهيز الجياد لهم في بعض الأحيان، وأقول مع مزيد الأسف أنَّ هؤلاء الجندرمة كانوا قساة إلى أقصى حد في معاملة المزارعين، وكان مجرّد نزول أحدهم في أحد بيوت العرب يحدث الرعشة في قلوب كافة الأفراد لخوفهم وروعهم مما قد يقابلونه من ضيفهم الثقيل، فيسعون لتقديم خير ما لديهم من المأكول ويغالون في ضيافته ويبذلون كل ما في وسعهم لإرضائه.

وأمّا حصة الحكومة من الحاصلات الزراعية فكانت تقدّر من قبل هيئات خاصة تجول في المزارع لهذه الغاية، وكان الملاكون يبذلون جهدهم للاتفاق مع هذه الهيئات فيما يخص تقدير كميات الغلال في البيادر المكدّسة فيتعهدون بتسليم حصة الحكومة منها، وذلك للتخلص من مداخلة الحكومة أو الملتزم في شؤونهم، فيتضح من ذلك أن الحكومة لم تتدخل في أي أمر من الأمور التي تتعلق بالمزارعين والملاكين إلاَّ في الأمور المهمة جداً وغالباً يجري ذلك بناءً على طلب من الملاك نفسه، لأنَّ طبقة المزارعين لم يكن لهم مجال للاتصال برجال الحكومة وحتى شيوخهم، فكان يتعذر عليهم الاتصال مع السلطات الإدارية إلاَّ في الأحوال النادرة أو بتوسط.

ومع كل ذلك فكان الفلاح بنظري أسعد مما هو الآن وكان الأمن سائداً وقلما تقع حوادث من نوع الحوادث الكثيرة التي تحدث في عصرنا الحالي، وإن من أهم العوامل التي جعلت هؤلاء المزارعين سعداء هي البساطة في المعيشة والاستغناء عن الكماليات والآلات الميكانيكية، ولا تنس القناعة والإيمان فلهما التأثير المبين في تهيئة سعادة المرء، وأما عن أخلاق هؤلاء الأعراب وشهامتهم وكرامتهم وضيافتهم فحدث ولا حرج، فكانت معهم فطرية لا يداخلها شيء من التكلف والتصنع.

وإني بهذا الصدد أدرج هنا نبذة من مقال لم ينشر كنت كتبته بعد إتمام دراستي ورجوعي إلى العراق وعنوانه «ماضينا، حاضرنا، وغدنا» تبيّن الأثر الذي خلّده في نفسي ذلك العهد، ولما كان ذلك بعد رجوعي من الغرب حيث فوجئت بزوال الحياة الماضية وفنائها بمجرى تيار المدنية الحديثة لاسيما وأن العراق لم

يكن قد نال استقلاله وقتئذ، فقد يكون بعض العذر لما يجده القارئ في الوصف من المغالاة أو التشاؤم، وإليك النبذة من المقال المذكور، قلت:

«. . . بالأمس كنا يا بني وطني مرتاحي البال، متمتعين في وسط حقولنا ومزارعنا بحياة بسيطة هادئة، قريبين إلى خالق الكون بالعبادة والفعال، بعيدين عن المادة وما ينشأ عنها من الضغينة والبغضاء والتكاره، نمثل على مسرح البشرية دور حياة فطرية حرّة تحاكي المثل الأعلى بسذاجتها ورفاهتها؛ أمَّا اليوم فنحن مقيدون بسلاسل حديدية سوف لا تنفصم عراها ما دام الغربي قوياً مستعمراً؛ إننا أحرار بالاسم فقط، ولكننا في الحقيقة عبيد أرقاء؛ بالاسم نتمتع باستقلال كامل وما نحن إلاَّ عبيد الغرب فعلاً، وهل أنا بحاجة إلى إثبات ذلك؟!. .

لنطر بطيارة الأحلام إلى عهد الماضي الجميل، عهد ماضينا الهادئ السعيد، فماذا نرى؟! بذاك العهد كنا نفلح الأرض ونأكل من ثمارها قانعين بما يسبغه الله علينا من عيش لذيذ شهي في وسط حياة مطمئنة يكتنفها الرغد والهناء، وما كنا نعرف في تلكم الحياة مفاسد اليوم وما يتبعها من الرذائل كتفسخ الأخلاق والإدمان على معاقرة الخمر والإكثار من لعب الميسر والإسراف في اللهو والترف التي بلانا الغرب بها ليمتص دماء الشعب وينتزع روح التقدم منا.

وكان شبابنا في عهدنا الماضي ينام مرتاح البال، يعيش كفرخ الحمام، نقياً بجسده وعقله حتى يكون له أن يتمتع بزواجه الشرعي، وما كان أطهره وأسعده في حياة الزواج. . . أمَّا النساء فكنَّ والمغازل بأيديهن يؤهبن كبب الغزل للنسيج ويساعدن الرجال في أعمالهم، وليس أرق وأنعش إلى النفوس من سماع أغانيهن حينما يطحنّ الحبوب عند بزوغ الفجر، ففي وسط ذاك السكون والصفاء يرافق صوت «الرحية»[1] صوتهن البشري الشجي، فكأنك في عالم الأحلام تنصت لأهازيج البلبل الغرّيد أو في النعيم تسمع ألحان الغيد الحسان.

كنت ترى عيداً مستديماً، عيداً مباركاً، يتقاسم أفراحه الكل على السواء، فكان البشر يعمل بلا ملل ولا ضجر، وحتى الحيوان فقد كان يقوم بنصيبه من العمل في معاونة الإنسان؛ تعاون في العمل وتقاسم للفرح واشتراك في الترح هكذا تكون الحياة وكذا كانت. . . يبدأ الكراب فيعقبه الطشاش والأرواء، ثم

(١) المقصود بذلك الرحى اليدوية التي زالت بزوال العهد القديم وبانتشار الماكنات الحديثة للطحن.

الحصاد فالنقال والتكديس والدراس فقسمة الغلال، وإذا بكل فرد زوَّد بيته غلة من جنى أتعابه تكفيه قوتاً طيلة سنته؛ وأمّا اللوازم غير المأكول فكانت من صنع العراق فلا يدخلنا من الخارج سوى الحاجيات القليلة الضرورية التي لا تنتجها بلادنا، فكانت صايتنا (الزويني) من نسيج صوف أغنامنا، وكذا (شرباكنا)[1] وعباءتنا وعقالنا، وقد كان حذاؤنا (النعال) من صنع أيدينا، فلم يكن غير الكوفية (اليشماغ) التي كنا نأخذها من الغرب مضطرين غير مخيّرين؛ كنا نلبس مصنوعاتنا الوطنية فرحين مستقلين لا نعرف عن الغرب غير أنه يوجد في العالم «أمريكا» و«الإفرنج»؛ ويجمل بنا أن نورد في هذا المقام أن مصنوعاتنا الوطنية لم تقتصر على لباسنا فقط بل كانت تشمل ما تحتاجه الحيوانات من الأجهزة كسروج الخيل والأعنّة وما يتبع ذلك من لوازم.

فما أقسى الظروف التي رمتنا بين مخالب الغرب، فأصبحنا نشتغل ونكد لنشتري بضائعه الساحرة، أي أمسينا نجهد نفوسنا ونبذل قوانا، لننفّع الغرب ونملأ كنوزه، فغدت حياتنا له، وصرنا عبيداً، له نكدّ وله نعيش؛ أوَ نلوم الزعيم الهندي إذا ما نادى بالرجوع إلى الجومة والمغزل؟!.

نتذكر الآن ماضينا الجميل بشيء من الألم والتأوه، إذ أنه راح ولن يعود، اختفى ولن يرجع...».

ها هو الوسط الذي فتحت عينيَّ فيه وترعرعتُ في أحضانه، وذلك ما جعلني أحب ما أحبّه العرب وأميل إلى حيث اتجهت رغباتهم وأمانيهم في الحياة حتى أصبحت شغفاً بركوب الخيل العربية، متعشقاً بذات الأرومة الطيبة و(السبوق)[2] منها.

وقد أصبح لي وقوف تام على مختلف أنواع الخيل واقتنيت عدة أفراس، فكان ذلك أعزَّ شيءٍ لديَّ في الحياة حتى قلَّما كان يمضي يوم إلاَّ أقضي منه ساعتين أو ثلاثاً أو أكثر على ظهر فرسي بين باحات المزارع وفسحات المتارع، وكنت أعنى بفرسي فيما يخص أكلها وشربها وتنظيفها بنفسي.

وكنت قد اخترت لباس العرب بعقاله وعباءته وقد كان حال دون نيل أمنيتي بكاملها إصرار والدي على عدم السماح لي بحمل البندقية واقتناء ما إلى ذلك من

---

(١) الشرباك كلمة يستعملها العرب ويعنون بها الزنار المحلى المصنوع من نسيج الصوف.
(٢) السبوق اصطلاح عند العرب يعني به الفرس التي لا تسبق.

ضروب الأسلحة التي كان يحلم بها كل عربي عزيز المقام، غير أني قد نلت أمنيتي بعد مدة قليلة بأول فرصة رفعت عني الرقابة الأبوية.

وكنت أحب عدا ركوب الخيل ركوب الجِمال أيضاً، وكانت قوافل الجِمال التي تنقل الأطعمة إلى الأنبار قد زوّدتني بالفرصة لنيل مبتغاي من هذه الناحية، وكانت تصل هذه القوافل في فترات من الزمن بين الواحدة والأخرى وذلك لإفساح المجال الكافي لتفريغ الأطعمة ورجوع القافلة دون أن تعترضها قافلة أخرى في الشوارع الضيقة فتحدث ارتباكاً وازدحاماً، وعليه فكنت مع بعض الأحداث العرب من رفاقي نركب الجِمال التي تنتهي من تفريغ حمولتها أي في عودتها إلى المزارع ثم نعود على ظهر الجِمال المحملة التي نلاقيها على مسافة بضعة أميال خارج المدينة وهي تقصد الأنبار لتفريغ حمولتها، وهكذا كنا نعيد الكرة عدة مرات في النهار.

وكان لهذه القوافل رئيس بدوي يدعى (أسُوم)، فكان هذا البدوي ذكياً طلق اللسان كنت ألتذ لسماع لهجته البدوية الموسيقية وكان يقص عليَّ حوادث الغزوات وحروب البدو وغير ذلك من عاداتهم وتقاليدهم وقد تعلّمت منه تقليد اللهجة البدوية، ومن الغريب أنَّه كان يسمُّيني (جرناس) فكان إذا ناداني على بعد تسمع صدى اللحن البدوي الموسيقي كأنك تسمع اللهجة الشعرية التي كان يتخاطب بها عرب البادية قبل عشرات القرون، وكان لأسُوم مهرة يكثر المديح بها ويغالي في وصف عدوها فتراهنا ذات يوم ونزلنا للسباق وأنا على ظهر إحدى أفراسي فتركته ورائي يوسع بمهرته ضرباً شديداً ولكن بدون جدوى.

ومن طرافة الصدف أن (أسُوم) البدوي جاءني في الأيام الأخيرة ـ وقد مضى حوالى أربع وعشرين سنة على حوادث الماضي ـ إلى دائرتي الرسمية حينما كنت أشغل وظيفة مهندس منطقة ري الفرات فقال لي: «إيه يا (جرناس) فأنت اليوم حاكم (الميّ) ويقصد الماء، وما أعظمه من منصب، فإنك تحيي وتميت، والمي هي الحياة». ثم استمر على بساطته البدوية قائلاً: «لقد جاء الله بك يا (جرناس) نعمة على الزراع، فدونك الذين لا يخافون الله ويبيعون (مي) الله بيع السلع». ويلاحظ أن هذا البدوي تتجسم أمامه ظاهرة الضلال عن جادة العدل ويستنكر طريقة الرشوة التي يسلكها البعض القليل من البوابين في تقسيم المياه، ويا ليته درى بأن هذا الأمر الذي يستنكره بشدة قد يحلله البعض من كبار الرجالات في مدنيتنا الحاضرة على مقياس أوسع وبشتى الوسائل لإرضاء جشعهم الحيواني وفقاً لأغراضهم الشخصية.



المؤلِّف بزيّه العربي قبل مغادرته العراق.

وعلى ذكر البدو والحياة البدوية إني لم أزل أحفظ بشوق بين طيات مخيلتي رسم ذاك العهد - عهد الماضي الجميل - حينما كنت أجلس القرفصاء بين أبناء البادية فنطرق أبحاثاً شجية، تلكم الأبحاث التي تدور مواضيعها حول حروبهم وغزواتهم في الصحراء وإلى ما هنالك من الأحاديث عن الإبل وأنساب خيلهم إلخ . . .

وهنا تأخذني الذكريات إلى الأيام التي كان قد حلَّ فيها شيخ قبائل عنزة (الشيخ فهد الهذال العجوز) ضيفاً في بناية الأنبار إذ كان الأنبار عدا مذاخره للأطعمة يحتوي على طابق مؤثث معد لسكنى الضيوف، وكان الشيخ المذكور قد جاء إلى الحلة على ظهر فرسه تاركاً صحراءه بقصد تطبيب رمد ولده الصغير الذي كان قد اصطحبه لهذه الغاية. وكان رجال الشيخ لا يقل عددهم عن العشرين وكانت خيلهم من خيرة خيل عنزة حلّت كلها في الاصطبل، وكنت أقضي معظم وقتي مع هؤلاء الرجال وتعلمت منهم كثيراً من الأمور التي تتعلق بالخيل، إذ أنَّ لهم طرقاً عديدة للاستدلال على عدو الفرس بذرع سيقانها وصدرها وأخذ النسبة بينها.

وكم كنت أتلذذ بلهجة هؤلاء الرجال وحديثهم وأُعجب بنفوسهم الحرة وسجاياهم السامية فكانوا يعترفون ويعجبون ببسالة أفراد القبائل من أعدائهم، ولم أكن أعلم شيئاً في ذاك الزمن عن (الكولونيل ليچمن) الذي كانوا يكثرون حديثهم عنه، فكانوا يدعونه (نجيمان) وهو ذلك الرجل الذي لعب دوراً هاماً في ربوع الرافدين وقد نال إعجاب الأعراب به ومودتهم له وسخطهم عليه في آن واحد، ومن غريزة البدو أن يتأثروا بمظاهر الرجولة والبسالة وكان (نجيمان) قد بصم انطباعاته في أذهان أبناء البادية السذج بحيث كانوا يغالون في تعظيم منزلته لما أظهره من البسالة والمهارة في أساليب الحروب إذ كثيراً ما كان يصطحبهم في غزواتهم، ويظهر أنه كان يحمل إبرته المغناطيسية للاستدلال بها في الصحراء وغيرها من الآلات كالمنظار ونظير ذلك من الوسائط التي يستعان بها في البادية إذ كانوا يتحدثون عن مثل هذه الوسائط التي كانت تسحرهم بمفعولها.

وفي الإجمال لقد كانت كل أسباب لهوي حاصلة وفق رغباتي وميولي فكنت كالأحداث العرب سعيداً في بساطتي ومشرب عيشي فيما عدا بعض العلاقات العائلية التي كانت تكدّر عليَّ صفاء رفاهتي وهنائي وذلك فيما يتعلق بمراقبة والديَّ لتصرفاتي التي تمس العقيدة الدينية، إذ لا يخفى أن لليهود تقاليد

دينية خاصة بهم يطبقون أحكامها تطبيقاً أعمى ويتعصبون لها شديد التعصب منها اعتبار نهار السبت نهاراً مقدساً لا يجوز لليهودي أن يقوم بأي عمل فيه، وفي هذا النهار يحرّم على اليهودي أن يستعمل النار أو يركب الخيل أو يقوم بغير ذلك من الأعمال التي يفعلها في الأيام الاعتيادية، ومعظم اليهود ينصرفون في هذا النهار للزيارات الخصوصية فيما بينهم والتورع في الصلاة، وهذا ما كنت أرفض الإذعان له إذ كنت أرى ذلك أمراً شاذاً وكثيراً ما كنت أُسائل نفسي بدون أن أتجرأ على مفاتحة والديّ في الموضوع: «لماذا يا ترى كل معارفي يفعلون ما اعتادوا عمله في كافة أيام الأسبوع بينما يحكم عليّ أن أسجن نفسي وأمتنع عن القيام بأي عمل أو لهو في يوم السبت؟!» وعليه فلم أستطع أن أحتمل الخضوع الأعمى إلى أمر والديّ في هذه الشؤون وكنت بالرغم من التهديدات أركب فرسي وأمتطي ظهر الجمال في أيام السبت على أني كنت أفعل ذلك خلسة، وكنت أحمد الله على حريتي حينما أكون في الريف خارج المدينة فأترك السبت لأصحابه متمتعاً بكل ما يتمتع به رفاقي العرب بدون اكتراث بالقيود التي وضعتها ديانة عائلتي.

وكان غير السبت ما ينغّص عليَّ عيشي، ذلك أن الديانة اليهودية تحرّم أكل السمن مع اللحوم كما أنها تحرّم أكل أي مطبوخ ما لم يهيّأ على الطريقة اليهودية، وأمَّا أنا فلم أكن ألتذّ بغير أكل المسلمين، وكنت قد ولعت بصورة خاصة بأكلة الدجاج مع الأرز وهو معروف عند العرب باسم (دجاج مطبّق)، وعليه فكانت تروق لي الدجاجة المقلاة بالسمن وهي محمّرة تستميل شهية المرء منظراً وطعماً، وكثيراً ما كنت آكل دجاجة بكاملها وأتحوّل إلى الثانية في كل أكلة من هذه الأكلات المحرّمة، وهنا قد ينطبق على ذلك ما يقال عن التلذذ بما هو محرّم، وكان عليّ أن أفعل ذلك خلسة خشية تسرّب الخبر لوالدي على أنه كان في بعض الأحيان يبلغه ما كنت أقوم به من هذه الأمور المخالفة لديانة آبائه وأجداده، فكان يغتاظ كثيراً وكم من مرة كان يستدعيني إلى غرفته وبانفراد كان يوجّه إليّ بعض الأسئلة ليصل إلى الحقيقة، فكنت أعترف له بحقيقة الأمر دون ما تردّد مما كان يزيد في غضبه، وكان أحياناً يسلك معي طريقة اللين بما في ذلك من النصح والإرشاد، وفي أحيان أخرى يستعمل الشدة كما أنه لم يتردد في ضربي مرة، وكان والدي يبذل جهده أن يخفي كل ما يجري بهذا الصدد عن والدتي خشية تألمها من الحادث بصورة قد تضر بصحتها إذ كانت أشد تعصّباً وتمسكاً بهذه التقاليد.

هكذا مضت الأيام فتلتها الشهور فالسنون وإذا بشرارة الحرب العظمى قد تطايرت إلى حيث كنا نعيش في محيطنا الهادئ، فأُعلن الجهاد بنتيجة دخول تركيا في معمعة الوغى إلى جانب الألمان، وكان ذلك العهد المعروف بعهد (السفربرلك) عهد بؤس وشقاء لأهل المدن الكبيرة ومنها بغداد خاصة، لأن نفوذ الحكومة كان في الواقع مقتصراً على هذه المدن وعلى ساحات الحرب التي كانت ترابط بها الجيوش التركية لمحاربة الأعداء، وكانت تفرض الجندية على أهالي المدن فقط؛ ولم يمر إلاَّ القليل من الوقت حتى ضعف نفوذ الحكومة في محيط الفرات الأوسط وأمسى رجالها موضع السخرية والإهانة في بعض المدن كالنجف والحلة وغيرها، ولذلك كان يتوافد إلينا الكثير من أهالي المدن وبغداد خاصة فراراً من الجندية ـ تلك الجندية التركية الخشنة القاسية التي إذا لم يمت الجندي فيها قتيلاً فإنَّه يموت جوعاً.

وكنت أقضي معظم أوقاتي آنئذ خارج المدينة وكثيراً ما كان يمضي عليّ أشهر عديدة وأنا لم أدخل المدينة، فكانت فرسي سلواي وكنت أمتطي صهوتها في صباح كل يوم أتجوّل بين المزارع وإذا ما قابلت أعرابياً بين زرعه ترجّلت وتركت فرسي ترعى وجلست القرفصاء إلى جانب صاحبي نتحدث في شؤون الزروع والخيل وإلى ما هنالك من البحوث التي يهتم لها الفلاح العربي. وبذلك كنت بعيداً عن هموم الحرب سعيداً في وسط ذلك المحيط الريفي المنعش وفرسي تصحبني فهي زهرة الحياة كانت تملأ نفسي إعجاباً وفخراً وسروراً، وكثيراً ما كنت أقضي طول نهاري وأنا أتنقل بين الزروع، تارة أدع فرسي تسرح فأنبطح على العشب وأخرى أمتطي صهوتها فنسير حتى نصل بيوت العرب فأقضي بعض الوقت فيها وأسد الرمق، ثم أعود قبل الغروب راجعاً إلى مقري.

وقد أبت الظروف القاسية إلاَّ أن تعكّر صفاء هذه الحياة وتسلب أبناء هذا المحيط الهادئ الزاهي بأزهاره ونباته، بجماله وسذاجته، من هنائه إذ نفضت القيادة العثمانية عنها غبار الشفقة والرحمة وبعثت بجيوشها ومدافعها ونيتها نية سوء تبتغي الانتقام من هذا الجمع الذي ألحق الإهانة برجال الحكومة وهيّض جناح السطوة العثمانية من فوق ربوعه... يا سبحان الله فما أقسى البشر حينما ينتقم!.. انتقام، ويا له من انتقام مريع... فقد جاء قائد هذه الحملة مشبعاً بروح ملؤها الانتقام والفتك كالأسد الكاسر الجائع الذي يتجه نحو فريسته. جاء هذا الأسد بشكل إنسان وصار يسوق الأشراف إلى المشنقة الرعيل بعد الرعيل، ولم يكتف

بذلك بل تصدّى إلى الأعراض وسبي النساء والأطفال دون ما عطف ولا شفقة وهدم البيوت حتى خسر الأتراك ثقة العرب بهم واستمر العداء بينهما يزداد يوماً بعد يوم، ولكن لم يمض زمن طويل حتى أخذت الجيوش التركية تتقهقر أمام القوات الإنكليزية وقد جاء دور القوات في الفرات الأوسط للانسحاب إلى الشمال.

وقد شاءت الأقدار أن ترميني في وسط هذه الحوادث سجيناً في فيحائي إذ كان يتعذر خروجي من المدينة التي سُوّرت كل جوانبها بالجيوش والخنادق، وما أن قرب ميعاد رحيل القوات التركية من الحلة حتى صار يجول رجالها في شوارع المدينة للاستيلاء على كل حيوان صالح للركوب أو النقل، وقد كانت فرسي في الاصطبل مع بقية الخيل لم تكن قد غادرت جدرانه طيلة زمن هذه الحوادث، وبينما أنا غارق في بحار الهواجس متصوراً مصير فرسي إذ جاءني مَن يبشّرني بانسحاب بعض القوات من خنادق أحد جوانب المدينة حيث يمكن الخروج منه بدون ما تعرض، وما مضى بضع دقائق على ذلك حتى كنت ممتطياً صهوة فرسي مسرعاً في الشوارع الضيقة متجهاً نحو الجانب الذي تخلّى عنه الجيش فمضيت منه دون ما عائق، وما كادت الفرس تشم نسيم الفضاء حتى تفتحت خياشيمها وأخذ صدرها يعلو ويهبط فمضت كالسهم تنهب الأرض نهباً، وبعد مضي ساعة من المسير اعترضتنا جموع العرب على ظهور الخيل متأهبة للقتال والاستيلاء على الجيش المنسحب، فمررت بين هذه الجموع بعد أن تحدّثت إلى بعض رؤسائها الذين كانت لي وإياهم معرفة شخصية، وما هي إلاّ بضع ساعات حتى بلغت القلعة التي كنت أقصدها.

أمّا الجيش فقد غادر الحلة في ذلك النهار وقد علمت بعدئذ أنه قد استولى على كافة خيل الاصطبل حيث كانت فرسي قبل هروبي بها، وكان يرافق الجيش بعض الموظفين وعدد من أفراد (الجندرمة) ولما كان الجيش مجهزاً بالمدافع والرشاشات ومستعداً للطوارئ فأفلح بالمرور في طريقه دون ما خسارة ذات شأن عدا وقوع أفراد (الجندرمة) أسرى بيد الأعراب. وما كاد يمضي الهزيع الأول من الليل حتى جاء العرب بهؤلاء الأسرى، وكان عددهم لا يقل عن عشرين شخصاً مع خيلهم وأسلحتهم، وكان معظم هؤلاء الجندرمة من العرب ولم يكونوا يرغبون باللحاق بالجيش التركي حيث كان معظمهم ينتمون إلى الحلة أو المدن المجاورة، وعليه فكانوا نوعاً ما مسرورين بما حلَّ بهم.

وعندما يتصوّر القارئ ما كان يلاقيه العرب من هؤلاء الجندرمة من الإهانة

والذل ويستعرض قساوتهم ومعاملتهم للأعراب فلا بد وأن يتوقع أن ينتقم الأعراب منهم وأن يقضوا على حياة كل منهم بعد أن وقعوا تحت حكمهم، ولكن الشهامة العربية قد تغلّبت في هذا الموقف على العواطف الهائجة، وقد أمر الرؤساء أتباعهم بوجوب اعتبار هؤلاء الأسرى ضيوفاً لا أعداء، ثم قال أحدهم: «تذكروا يا ناس أنهم عرب منا وقد فضّلوا أن يكونوا تحت حمايتنا على أن يرافقوا الجيوش التركية». وفي الحال أخذ كل من هؤلاء الجندرمة مقعده في المضيف واصطفوا يأكلون ويشربون كبقية الضيوف على حساب العادة العربية، وأما الأسلحة فقد قسمت وفقاً لإرادة الرؤساء واتفاقهم ولما كانت الخيل تعود إلى أفراد الجندرمة أنفسهم وليست ملك الحكومة فقد تقرّر أن تبقى لهم مع أمتعتهم الخاصة وألبستهم.

وبقيت بعد ذلك بعض الزمن خارج المدينة وكان ذاك العهد عهداً مضطرباً إذ بقيت هذه الناحية من القطر العراقي بدون سلطة حكومية حتى جاءها الإنكليز بعد مضي مقدار من الزمن على احتلال بغداد. وما كان اهتمام الإنكليز بالفيحاء إلاّ لما احتوته من الذخائر في مخازنها فجاؤوا يتزودون بالأطعمة، وما أن مضت بضعة أيام حتى كانت أسراب سياراتهم تنقل الأطعمة فارتفعت أسعار الحبوب ارتفاعاً هائلاً، ولكن الأوراق الهندية كانت تبذل بلا حساب فنقلوا ألوف الطنون من ذخائر الفيحاء، وكانت هذه الوسائط الميكانيكية ومذاهب الحياة الغربية التي كان يسلكها الإنكليز وجنودهم أدخلت في البلاد طوراً جديداً فطوت صفحة من ماضيها، إذ دخلت هذه المدنية الغربية إلى جوف البلاد فأحدثت فيها انقلاباً عظيماً لم يسبق له مثيل في تاريخ الفتوحات، وأخذت الروبيات تلعب بعقول الكثير من العرب حتى غيّر معظم شيوخهم طراز حياتهم فجأة، ففقدوا بذلك حريتهم المعهودة ورموا أنفسهم عن رضا وطيب خاطر بين أحضان المغريات الغربية، وأمسوا عبيداً للروبيات دون أن يشعروا بما فقدوه من ميراثهم الثمين، ولم يكن ليفطن أحد في ذلك الحين بأن هذه الوسائط الميكانيكية ستكون القاضية على كل جميل في حياة العرب وكل نبيل في عاداتهم وتقاليدهم.

وهنا بدأت البلاد تدخل في فصل جديد هو دور التطور والانتقال إلى حياة الحضارة الغربية؛ ولا يخفى ما لسرعة التطور في مثل هذه الحال من خطر على المجتمع، إذ قد اختلَّ التوازن وفازت كفّة المادة في القسطاس الاجتماعي، وأخذت المبادئ الروحية بما في ذلك الفضيلة والأخلاق تنحط شيئاً فشيئاً حتى سئم الكثير من هذا الانقلاب الفجائي.

وما أرقى شعور الأعرابي. . . فقد جاء هذا الطور الجديد صدمة مريعة في مجرى حياته الفطرية، ولا يخفى أن الأغاني العامية مع ما تحتويه من الأبيات الشعرية التي تكون عادة من ابتكار القارئ نفسه هي تمثل الشعور الذي يشعر به العامة وتنطق بما يحسّون به، وعليه فقد نجد فيها ما يعبّر عن نفسية الناس واتجاه أفكارهم.

رحم الله (زيدان) إن كان ميتاً وأطال عمره إن كان حياً. . . فما أرق صوته وأعذب كلامه!. . . لقد اجتمع الأعراب ذات ليلة حوله حيث كانت أشعة البدر منتشرة في الفضاء فرفع عقيرته في ذاك الفضاء الساحر وهو يغني إلى جانب (ربابته) الأبيات العامية التالية:

«أتـــانــا الــذل يـــا لــيـــت الـــمـــوت يـــدنـــى

الخادم طال واحنا (ونحن) اگصرت (قصرت) يدنا

وانچانك (إن كنت) محمد ﷺ صدك (صحيح) جدّنا

فكُنّا من زمان الصوجرية (العسكرية الانكليزية).»

وفي الحق أن الثورة العراقية لم تكن إلاّ مظهراً من مظاهر الثورة ضد سلطان المادة الغاشمة التي سلبت العرب استقلالهم وحريتهم وكرامتهم، إلاّ أنه سرعان ما رجعت المادة وتبوأت كرسي السلطة بعد أن نال العراق استقلاله، إذ جاءت هذه المادة سالكة طرقاً غير طريقها الأول، فاتخذت لها الطرق الاجتماعية والاقتصادية واستولت على الأشخاص بمغرياتها فجعلتهم بذلك عبيداً لها، وإني لم أرَ بوناً كبيراً بين أن تكون البلاد مستعبدة أو أن يكون أفرادها مستعبدين. . .

ويجب أن لا يغرب عن البال أن المادة الغربية هي اليوم مسيطرة على البلاد وإن كانت سيطرتها من طرق غير الطريقة السياسية، فقد نفثت سمومها في وسط المجتمع وما نراه اليوم من مظاهر التدهور والضلال في الأخلاق والمبادئ ما هو إلاّ مفعول هذه السموم؛ وما لنا أن نقول بهذا الصدد غير أن نبتهل إليه تعالى أن يجعل رجالات العراق يتيقظون إلى هذا الاختلال في التوازن فيبذلون اهتمامهم في توطيد القوة الروحية المعنوية لتكون رادعاً تحارب فيه قوة المادة المستحوذة على أفراد الأُمة فتهديهم إلى المسلك القويم ليتحرروا من عبوديتهم.

وعليَّ أن أعترف في هذا الباب بأن مغريات المدنية الغربية كان لها بعض التأثير في مسلكي إذ غيّرتْ مجرى حياتي كما غيّرت مجرى حياة الكثير من أمثالي

في ذاك العهد، ثم جاءت الثورة العراقية فغيّرتْ فينا حركة التطور وأخذ الكثير من أبناء الفرات يتراجعون مفكرين في جمال ماضيهم وسعادتهم المفقودة، ولكن ما العمل؟! إن تيار المادة كان سيلاً جارفاً لا يقاوم.

وكان قد قدر لي أن أشاهد حوادث الثورة العراقية عن كثب بما في ذلك من تضحيات أبناء يعرب في سبيل الحرية والاستقلال، ويخيل إليّ أن الإنكليز مع اضطرارهم لمنح العراق استقلاله، قد انتقموا من أبنائه في ناحية أخرى بما قدموه لهم من إنتاج مادتهم الساحرة التي تهافت عليها أبناء العراق برضاهم، وهم الآن يتمتعون بتأثير سحرها المخدّر وسيأتي يوم يشعرون فيه بمفعول سم هذه المواد.

لقد انتهت الثورة ولكني مع جهلي كنت أشعر بالقلق والارتباك بعيداً عن الارتياح الفكري والاطمئنان فسئمت نفسي الحياة، وكان إذ ذاك والدي قد غادر العراق للتطبّب ولم يبقَ طويلاً حتى فارق الحياة في غربته؛ وفي هذا الدور الحرج كنت كثير التردّد إلى صديق سوري وهو طبيب عربي، وإني مدين له لترغيبه إياي وتشويقي على الالتحاق بجامعة بيروت السورية لكي أكون طبيباً مثله، وكنت آنئذ أميل إلى أن أعرف شيئاً عن العالم وكان لي ميل خاص لأن أفهم تاريخ الأديان وتاريخ الأمم وإلى ما هنالك من المواضيع المنوّرة إذ أصبحتُ في هذا الدور تساور أفكاري كثير من الأمور كنت أود أن أستطلع حقيقتها وقد لفتت نظري بعض الأحوال السياسية والدينية كانت تشغل ذهني وكنت أود أن أجد مَن يهديني إلى فهم منطوياتها، وعليه فقد كان نصح صديقي الطبيب قد سحرني سحراً ووجه أفكاري إلى ناحية من نواحي الحياة لم أكن أفكّر فيها من قبل.

وما مضت بضعة أيام على ذلك حتى شددت الرحال وقصدت جامعة بيروت الأمريكية فقضيت فيها بضع سنوات إذ كان لزاماً عليّ أن أحصل على الشهادة الثانوية قبل ولوجي الدوائر العليا، وهنا التقيت بإخواني العراقيين ودرست اللغة العربية حيث ولعت بها ولعاً خاصاً، ولا بد لي من أن أشير في هذا الصدد إلى ما لاقيته من أبناء وطني في محيطي الجديد من التشجيع والمعونة. وإني مدين بذلك لمعظمهم وبالأخص الدكتور فاضل الجمالي الذي كان يقضي الساعات معي سواء أكان ذلك أيام الدروس أو أيام العطل وذلك لإرشادي في دروسي العربية وكان (وإخاله لا يزال) ممن يعتقدون في كتاب

(كليلة ودمنة) وفائدته للمبتدئ في اللغة العربية، ونزولاً عند رغبته طالعته مراراً حتى كان يجعلني أقرأ أمامه بعض رواياته ثم يطلب إليّ أن أكتب بإنشائي مضمون ما قرأت ويصحح لي ذلك بعده، ولم يمض زمن طويل حتى ساويت أقراني في معلوماتي العربية واشتركت في عدة مسابقات إنشائية خطابية نلت بعض الجوائز فيها.

ولا يخفى أن هذا المحيط العلمي قد حوَّل حياتي إلى طور جديد في كل ناحية من نواحي تفكيري وعملي، ولكن في الوقت نفسه لم يتغير شيئ من نفسيتي فقد حافظت على حبي لحياة الماضي بما في ذلك من مبادئ وميول وكلما تدرجت في العلم وفهمت الأمور التي كنت أجهلها زاد فيَّ الحب لحياة الماضي السعيدة.

والدليل على تمكن حبِّي هذا من نفسي أني كنت أود أن أظهر بمظهر حياتي الماضية، وقد حدث ذات ليلة أيام كنت طالباً في الجامعة الأمريكية أن ارتديت ملابسي العربية وظهرت لإخواني العراقيين في الجامعة كأحد العراقيين من أبناء عرب الأرياف قاصداً الجامعة للتحصيل وكنت متلثماً بكوفيتي وأتكلم بلهجة عرب الأرياف بحيث نجحت في التنكر عنهم، وقد تجمّع الطلاب العراقيون في ساحة الجامعة وصاروا يطوفون بي من محل لآخر لإراءتي مباني الجامعة، وكنت خلال ذلك أظهر إعجابي الشديد بكل ما أشاهده حتى رأيت بعد نجاح خطتي أن لا أتعب إخواني أكثر من ذلك سيّما وقد قاموا بواجبهم خير قيام وعبّروا عن عاطفتهم الوطنية بأجلى تعبير فخلعت عني كوفيتي وانفضح الأمر، ولا تسل عما اعترى الجميع من ذهول ودهشة.

وإذا تأمل القارئ هذا الحادث البسيط ملياً وجد أن الحب للحياة العربية الساذجة هو غريزة في نفس كل عربي يشعر بعزة المنشأ العربي وجمال حياة البساطة السامية فيه، وكان أبناء العراق وهم في غربتهم في ظل المدنية الغربية قد أظهروا في موقفهم السالف الذكر استرسالهم في عاطفتهم وحنوهم حينما تجلَّى أمامهم مظهر من مظاهر الحياة العربية الفطرية الذي يمثل حياة السلف بما فيها من سذاجة وطهر وفضيلة.



المؤلِّف في بزّته العسكرية في أمريكا.

أما جامعة بيروت العربية فقد فتحت نافذة طموحي وقد حان لي أن أقرّر مسلكي في الدراسة، فهل أدرس الطب كما نصحني صديقي الطبيب وإني لم أمل إليه؟! فكّرت أولاً بدرس الزراعة ولكن سرعان ما غيَّر البعض أفكاري وكان أن قرّرت أخيراً درس الهندسة فشددت الرحال متجهاً نحو الولايات المتحدة حيث حصرت جهودي في السير في هذا المسلك الوعر حتى بعد انقضاء المدة المطلوبة أدركت الهدف الذي كنت أصبو إليه فنلت شهادة الهندسة الملكية، وإنّي لأعتقد بأن هذه السنين كانت من أصعب السنوات التي قضيتها في حياتي الدراسية وقد يقدر قولي مَن سلك هذا المسلك في دراسته.

وكان قد صادف أن ابتدأت في دراسة الهندسة في كلية عسكرية إذ لا يخفى أن في الولايات المتحدة بعض الكليات الحكومية التي يُجعل فيها التعليم العسكري إجبارياً وأن الطالب الذي يدرس الهندسة أو الزراعة أو غير ذلك من الفروع فهو ينال شهادته العلمية بعد انتهاء دراسته ويحوز في الوقت نفسه على شهادة ضابط عسكري في الفرع الذي يختاره، وقد كان طبيعياً أن أختار فرع الخيالة لميلي إلى ركوب الخيل، وكنت أميل إلى التعليم العسكري وأجدت فيه نظراً لخبرتي السابقة في ركوب الخيل، وكنت أعد ذلك فرصة ثمينة فاغتنمتها إلاّ أن تحوّلي إلى جامعة أخرى بعد سنتين قد حال دون إكمالي الأربع سنوات المطلوبة لنيل شهادة ضابط. وعندي أن للتعليم العسكري كثيراً من المزايا وأهمها إيقاظ روح الرجولة الحقة والوطنية الصادقة وتنمية حس الانضباط في نفوس الشبيبة، وأن الأمل أن تنهج وزارة المعارف نهجاً خاصاً لإدخال التعليم العسكري في بعض مدارسها علاوة على المواضيع الدراسية، وكانت قد قامت على ما أتذكر بتجربة من هذا النوع والأمل وطيد أن تستمر على خطتها عند تنظيم مناهجها.

وكنت آمل أن أقفل راجعاً إلى وطني بعد الحصول على شهادة الهندسة إلاّ أنه بعد نيلي ذلك أصبحت أشعر بنقص في تحصيلي وحاجتي إلى بعض العلوم التي تغذّي عقلي وتنوّرني من الناحية المعنوية، إذ كنت طيلة هذه السنين بلا دين معيّن أتبعه ولم يكن لي المجال للوقوف على تفاصيل مختلف الأديان والتوغل في فلسفة الدين بالرغم من ميلي الشديد لتحقيق هذه الأمنية، وعليه انصرفت إلى درس العلوم الاجتماعية الفلسفية السياسية التي تتعلق بالمجتمع الإنساني ونظامه.

وشاءت الأقدار أن ترمى بعض العراقيل في طريقي وذلك أن أوقعتني في حيرة مالية في وسط فترة الدراسة الأمر الذي كاد يضطرني إلى ترك المدرسة فاستنجدت بأحد الأغنياء من معارفي في العراق ليقرضني المبلغ المطلوب لإكمال

دراستي إلاَّ أنه قد جاءني الجواب بعكس ما كنت أنتظر يحمل عذراً مزخرفاً. وعليه قطعت الأمل من هذه الناحية. وبعد مدة قصيرة انفرجت عني هذه الحيرة بنيلي جائزة في مسابقة تأليفية قدرها مائتان وخمسون دولاراً وأتيح لي في الوقت نفسه أن أدرِّس اللغة العربية مقابل أجور أعانتني كثيراً كما أني قد استلمت بعد ذلك ما كنت أحتاجه من المال لإكمال دراستي.

وكان قد أصبح لي ولع خاص بدرس فلسفة الأديان ومقارنة المبادئ الدينية المختلفة بعضها مع بعض فقصدت في إحدى الصيفيات جامعة شيكاغو ودرست على أساتذة شهيرين هذه المواضيع وكنت آنئذٍ قد حرّرت رسالة باللغة الإنكليزية عن «المسيحية والإسلام» كنت وضعتها أثناء دراستي موضوع (مقارنة الأديان) توضح بجلاء تأثير الشريعة الإسلامية السمحة في نفسيتي. ولما كان لهذه الرسالة بعض الصلة في موضوع بحثنا رأيت نقلها إلى اللغة العربية وقد أدرجتها في الكتاب[١].

وكنت بعد ذلك قد ولعت بصورة خاصة في موضوع الأنظمة الدولية وعلاقات الدول بعضها ببعض لما في ذلك من صلة في الروابط بين الأمم من النواحي التاريخية والسياسية والقانونية حتى تكللت جهودي بفوزي في نيل الدكتوراه في هذا الموضوع الأخير وذلك في سنة ١٩٣٠.

وكان قلبي يخفق كلما تصوّرت قرب موعد رجوعي إلى وطني وكنت كلي آمالاً وقد أخذت الحماسة من مأخذها حتى كان يوم وصولي إلى بغداد يوم ابتهاج عميق وسرور فياض، وما إنْ سرت في شوارع العاصمة حتى ذهلت متسائلاً: أهذه هي بغداد؟! يا سبحان الله لقد تغيَّر كل شيئ فيها، فسررت لهذا التقدم السريع، وبعد أن قضيت بضعة أيام مضى معظم الوقت فيها في الزيارات اشتقت لفيحائي فزرتها وإذا بها قد تغيّرت أيضاً فتبدلت فيها المظاهر فكأنها غير الحلة التي أعهدها.

---

(١) راجع في هذا الكتاب مقال «الإسلام والنصرانية».



المؤلِّف في بزّته العلمية.

وكان عليَّ عندئذ أن اختار مسلكي في الحياة فوجدت أن البلاد في دورها الحديث بحاجة إلى الفنيين من أبناء البلاد إذ كان الأجانب مستولين على كافة الوظائف الفنية وعليه فقد قرَّرت أن أدخل الخدمة في الدائرة الهندسية وقد قادني ذلك بطبيعة الحال إلى مقابلة الرؤساء الإنكليز وجهاً لوجه وشاءت الظروف أن تجمعني بمدير مصلحة الري وهو موظف إنكليزي قد جمع من السياسة والفن والإدارة والحنكة ما يجعل المرء حائراً في أي منزلة يضعه. دخلت عليه فرحَّب بي وأشار لي بالجلوس على كرسي كان قريباً منه وبعد أن سألني أسئلة شخصية كثيرة واستوضح عن دراستي بصورة مفصلة أخذته الدهشة ثم قال: «إني أعجب لماذا لم تذهب إلى فلسطين حيث يسعك أن تخدم الوطن القومي اليهودي». ولشد ما كان استغرابي لما فوجئت به، فما كدت أسمع ذلك حتى ذهلت فأخذت أحدّث نفسي: «يالله أأنا في حلم أم في يقظة؟! أهذه هي نتيجة أحلامي بعد أن وضعت كل شعوري وآمالي في وطني العزيز الذي نشأت في وسطه؟ أهذه نتيجة تصوراتي وتخيلاتي بالمستقبل الزاهر الذي كنت أتمثله دوماً في غربتي وأنا أعد الأيام حتى يحل موعد الرجوع إلى الوطن؟!» لقد شعرت في تلك الآونة بتيار الكآبة قد تمشَّى في كل مفاصلي وقد لحظ صاحبي ذلك عليَّ ولكني بادرته قائلاً: «لقد أخطأت في ظنك يا سيدي إذ أني لست بالشخص الذي تصورته، وإني أزيدك على ذلك بأني عراقي عربي قبل كل شئ وقد هيأت نفسي لأكون أحد الرجال العاملين في وطني الذي خلقت ونشأت فيه وإني لأفضِّل حياة زاهدة في وطني على أطيب العيش في فلسطين أو غيرها من بلاد الله». وفي الحال قد تغيّر مظهر البشاشة الذي كان على وجهه إلى مسحة فيها شئ من التأمل مع ابتسامة خفيفة استغلها لتغيير الموضوع فأخذ يتحدث عن أمور الري وأعمال الدائرة بصورة عامة، ثم جرى تعييني بعد تأدية الامتحان في الهندسة.

كان ذلك أول عهدي في الحياة العملية ولكن اختباري القديم في الأرياف والزراعة وعادات العرب وتحصيلي في المواضيع الاجتماعية والسياسية والفلسفية إضافة إلى الفن، كل هذه جعلتني في مكانة أتمكن معها أن أفيد مجتمعي وأن أستفيد في الوقت ذاته، وبعد أن قضيت بضع سنوات في الخدمة في مختلف أنحاء العراق أرجعتني الظروف إلى أحضان فراتي حيث كنت في آخر عهدي مهندساً لري الفرات في الحلة، ذلك المحيط الذي نشأت فيه وقضيت في وسطه أيام صباي، فكانت صدفة مثيرة لعواطفي وشجوني ومثبّطة لآمالي في الوقت نفسه، أمَّا أنها مثيرة لعواطفي فذلك لأنها أعادت ذكريات الماضي وعرضت أمامي عهد صباي

الحر، وقد كانت مثبّطة لآمالي لأنَّ وجودي في هذا المحيط استثار طموحي واستحثني في السعي للإصلاح في منطقة وطني الصغير ولو بقدر ما يشمله نطاق عملي، ولكن كثيراً ما يقابل المرء من العراقيل الكثيرة في هذا السبيل في عصرنا الحالي المرتبك المبني غالباً على سيطرة المادة والأغراض، على أنه لا بد لي أن أقول بهذا الصدد إن ألذ ما تمتعت به في حياتي العملية في الخدمة الحكومية هو ما قمت به من الواجب تجاه أبناء محيطي الذي قضيت فيه أيام الصبوة، إذ أُتيح لي بحكم وظيفتي الوقوف على بعض أحوال المزارعين وتخفيف وطأة مشاكلهم بقدر استطاعتي بضمن حدود صلاحيتي.

والواقع أن للبيئة التي نشأت فيها والوسط الذي ترعرعت فيه الفضل الأكبر في تكوين عقليتي وعقيدتي وتفكيري، وإني مهما كنت وكيفما كانت منزلتي فإنّي لم أفتأ أنظر إلى الفلاح العربي أو البدوي صاحب الجمال كندّ أعطف عليه وأسعى لإسعاده قدر جهدي، وقد كانت عاطفتي هذه تتغلّب عليّ حتى في القيام بواجبات وظيفتي فكان فيّ حافز داخلي يدفعني لمساعدة الفلاح الزارع وإعطائه حقه مهما كلفني الأمر وكنت أشعر بسرور وسعادة يملآن نفسي ارتياحاً واطمئناناً كلما قضيت أمراً لهؤلاء الذين غالباً ما يقابلهم بعض الموظفين بقساوة واستهتار، وإني آسف أسفاً مؤلماً أن يكون بعض المغرضين قد اتخذوا مسلكي هذا واسطة لنقد أعمالي والقذف بشخصي.

وكثيراً ما كنت أقابل صدفة بعض الأعراب الذين جمعتني وإياهم أيام صباي وذلك أثناء تجولاتي في الأرياف وهي نفس الأرياف التي كنت أتجول فيها على ظهر فرسي قبل حوالى أربع وعشرين سنة، وكانت من عادتي أثناء تجولاتي المستمرة أن أركّب معي في سيارتي من مثل هؤلاء الزراع عندما يصادف وجهة سفري نفس المحل الذي يقصدونه، فكنت ألتذ بإشراكهم ولو لمدة قصيرة في التمتع بالوسائط الميكانيكية الحالية، ولا يخفى أن العهد الماضي كان يجعل الفلاح مساوياً لملاكه أو رئيسه في التمتع بوسائط النقل فكان الكبير والصغير، الغني والفقير، الكل يركب الخيل جنباً إلى جنب وقد يكون أفقر مَن في الأعراب حائزاً على فرس من أجمل الخيل وأطيبها، فكان للفلاح والحالة هذه ما يفاخر به أكبره جاهاً ويجعله يشعر بأنه مساوٍ له في هذا المضمار، وعليه فقد كنت حينما أحمل معي أحد هؤلاء الزراع أشعر بأنه كان في الماضي رفيقي وصاحبي نركب خيلنا ونسير جنباً إلى جنب، أمّا الآن فقد فرّقت المدنية الحالية بين الأفراد في المجتمع وجعلتهم طبقات يحقر بعضها بعضاً ولا يشفق بعضها على بعض، والواقع

أن المدنية الحاضرة قد هدمت بعض أركان صفات العروبة والإسلام بما في ذلك مبدأ المساواة والتعاضد والرأفة بالمعوز وبَنَت على أنقاضها حاجزاً منيعاً بما قدّمته من الكماليات التي أصبح القتال والنضال سجالاً في التزاحم على بيعها في أسواق العالم. إن الفلاح الذي كان فيما مضى ينظر إليّ بنظرة رفيق ويميل إليّ كشريك في مصلحته أصبح يراني غريباً عنه في سيارتي ولباسي، وأمسى يتأوه ويسأم الحياة لعدم حيازته على كماليات الحضر.

وكانت هذه الصدف تفتح أمامي صحيفة الماضي بصوره الطبيعية التي تمثل مسرح البساطة والاطمئنان، فأغبط الذين حافظوا قدر استطاعتهم على حياتهم الفطرية بما في ذلك من بساطة العيش والحرية المفقودة في حياتنا الحضرية الحالية: أليس العالم الذي نعيش فيه مكبلاً بالقيود؟! أين نحن من الحرية والقيود لا تفارق حتى رقابنا التي تطوّقها ربطة الحرير وقد جعلتها مدنيتنا أثراً لامعاً لقيودها الثقيلة؟ بل أين نحن من الاطمئنان والارتياح وقد جعلتنا المدنية يزاحم بعضنا بعضاً ويكره بعضنا بعضاً ونبيع من أجل المادة الميراث الثمين بما في ذلك من مبادئ سامية وأخلاق فاضلة وسجايا حميدة ؟ وأين نحن من السعادة التي تصبو إليها أنفسنا وقد سلبتنا مادة المدنية الساحرة الإيمان والقناعة ؟ فليس بوسعي وقد أدركني الختام سوى أن أنقل الكلمات التي طالما أردّدها على نفسي فأقول: ـ

الماضي وما أجمله!.. إننا نعيد الذكرى بجمال الماضي وهنائه لا لأنه جميل وهنيء فحسب ولكن لأنَّه عهد مضى ولم يعد... فالماضي إذن جميل بمصائبه وملذاته، بمشقاته وعذوبته!!... وإني لأرى في ماضي حياتي وزمن صباي أكثر من الجمال إذ وجدت فيه تراثاً ثميناً قد كبر في نفسي وعظم في عقليتي كلما زدت بالغرب احتكاكاً وتغلغلت في أعماق المدنية، وإني لفخور بكيفية نشأتي وأبجل ما أكسبتني ظروف هذا العهد من العادات والميول، فهو جدير بأن يبذل المرء جهده في سبيل إحياء مظاهره في مجال الحرية والشرف.

القاهرة في:

٢٧ رجب سنة ١٣٥٥ ـ ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٦

أحمد نسيم سوسة

لماذا اعتنقت الإسلام؟

﴿فَمَنْ يُرِدِ الله أنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضلّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأنَّما يَصّعَّدُ في السَّماءِ﴾.

المقدّمة:

أوّل ميلي إلى الإسلام ـ المجتمع الأمريكي وديمقراطية الإسلام ـ اسراري ورغبتي في اعتناق الإسلام ـ حوادث فلسطين الأخيرة ـ إني مسلم شعوراً وموطناً وديناً ـ حياتي الجديدة في الإسلام ـ اليهودية والتعصّب الديني المنصري ـ التعليم الراقي والإلحاد ـ ما هو العلم وما هي غايته ـ العلم وإظهار الحقائق ـ المبدأ والشرف أساس العلم الصحيح ـ الدين وتأثيره في الثقافة ـ العلم نصير الإسلام ـ العلم وضرورة انتهاج وجهة معينة في الحياة ـ البلاد العربية ودورها الحالي ـ الغرب والإسلام ـ الدكتوراه والمعتقد الديني ـ مصير الدين في الغرب ـ العقبات في الطريق والتغلّب عليها بقوة الإيمان.

يرجع ميلي إلى الإسلام إلى ما قبل ثلاث عشرة سنة حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى في عهد دراستي في الجامعة الأمريكية البيروتية، فولعت به ولعاً شديداً، وانصرفت إلى تلاوته مستعيناً بالكتب المزوّدة بحواشي التفسير لفهم معناه حتى أهملت البعض من دروسي المدرسية الأخرى، وكنت أطرب لتلاوة آيات القرآن، وكثيراً ما كنت أنزوي في مصيفي تحت ظل الأشجار وعلى سفح جبال لبنان فأمكث هناك ساعات طوالاً أترنّم بقراءته

بأعلى صوتي. إلاَّ أني لم أُفكّر في أمر اعتناق الإسلام إلاَّ بعد أن قضيت في أمريكا بضع سنوات ودرست فلسفات الأديان وتوغلت في المواضيع التاريخية الاجتماعية حتى أدركت كثيراً من الأمور الغامضة التي كان يصعب عليّ حلها، وفي الوقت نفسه أني أعتقد بأن محيط أمريكا الذي تتجلى فيه الحياة الديمقراطية بأجلى بيان قد يستميل المرء الذي فطر على حب الحرية والسذاجة إلى الانقياد إلى تعاليم الدين الإسلامي المشبع بروح الديمقراطية الحقة والحرية والبساطة، ولذلك نرى أن المذهب الكاثوليكي المحشو بالقيود الثقيلة لم يلقَ أرضاً خصبة للنمو في العالم الجديد، وعلى المرء الذي وقف على حقيقة الإسلام أن يعترف بأن الإسلام هو في الحق دين الحرية والفطرة بعيداً عن قيود الكنيسة واستبدادها في المسيحية وغريباً عن العصبية وتقاليدها الثقيلة في اليهودية، وفضلاً عن ذلك أن محيط أمريكا الذي بلغت فيه الحضارة المادية إلى أقصى حدها نجد حركة رد فعل تجعل الكثير من الأمريكيين يستهويهم كل شيْ طبيعي خاضع إلى بداهة الفطرة والألفة الإنسانية التي قضت عليها المادة في هذا العصر، وعليه فالمرء الذي تغلغل في أعماق هذه الحضارة وأدرك منطوياتها ومحصها تمحيصاً دقيقاً نظرياً وعملياً لا بد له من الانقياد بقوة نفسية كمينة إلى منهل العقيدة الإسلامية ليروي غليله منها، وإني أعتقد بأنَّه لو كان للإسلام في هذا القطر الغربي بعض ما كان للمسيحية من الدعاية والتبشير لكان علمه يخفق اليوم في معظم أصقاع هذه البلاد الواسعة ولكان لقي فيها من التشجيع بخلاف ما هو معروف عن فشل التبشير النصراني[١].

وكنت بعد رجوعي من الغرب قد أسررت إلى أحد خلاني بما قرّرته حول اعتناق الإسلام ولا أرى مناسبة لذكر اسمه. فلا شك أنه يتذكر ذلك حينما يتصفح

---

(١) إن الإسلام في أمريكا لم يكن له من الدعاة أو مَن يقوم بمهمة بيان مزاياه وإظهار جوهره الصحيح، ولم يكن إلا قبل زمن قصير إذ شعر المسلمون في نيويورك بحاجتهم إلى إنشاء المؤسسات الدينية اللازمة، فأسسوا أخيراً مسجداً في نيويورك وقد أعقبوا ذلك بتأسيس جمعية للشبان المسلمين في نفس المدينة؛ وقد نشرت الصحف في أوائل شهر نوفمبر ١٩٣٦ خبراً مؤداه إن الجاليات الإسلامية في أمريكا طلبت إرسال بعثة أزهرية من رجال الوعظ لتعليم أصول الدين الإسلامي في أمريكا وتوضيح ما أشكل على المسلمين هناك وعلى الكثيرين من الراغبين في اعتناق الدين الإسلامي، وقد بادر فضيلة شيخ الجامع الأزهر باتخاذ ما يلزم في هذا الشأن لإرسال البعض من خريجي قسم الوعظ للقيام بهذه المهمة.

رسالتي هذه، هذا كما أني فاتحت زوجتي في الأمر وهي مسيحية المذهب كما يتضح من البحث في حادثة زواجي الذي يجده القارئ في فصل اليهودية والإسلام، ولكن هناك أموراً كانت حائلة دون تحقيق رغبتي أهمها اجتماعية عائلية قد يكون ذكرها مما لا يناسب المقام.

وكانت قد هدأت عاطفتي طيلة السنين الأخيرة الماضية لاهياً في أعمال كنت أجد فيها لذة عميقة بقربي من الأعراب واتصالي المباشر بمصالحهم، وذلك بمناسبة أعمال وظيفتي في المحيط الذي نشأت فيه مما كان يجعلني أشعر كأني في أيام عهد صباي عائشاً في الوسط الذي طالما أحببته وتقلّبت في نعيم حريته وسذاجته في زمن حداثتي، ولكن حوادث فلسطين الأخيرة قد أثارت في نفسي هيجاناً شديداً وأيقظت فيَّ عاطفتي الراقدة فلم أعد أستطيع معها احتمال السكوت فوثبت ثائراً على قيودي مطلقاً للساني العنان معلناً بالصراحة والحرية ما تضمره نفسي من الحب والواجب تجاه الإسلام والعروبة.

وعليّ أن أقول بهذا الصدد بأني عربي في نزعتي قبل كل شيء محب للأعراب بصورة عامة وأخص منهم الذين قضيت معهم أيام حداثتي وأول سني شبابي، ويتضح ذلك من مجرى ترجمة نشأتي التي شرحتها باقتضاب في مقدمة رسالتي؛ وعليه فحبي للعربية والعروبة هو غريزة في نفسي جبلت عليه منذ حداثتي فأصبح فيَّ حباً فطرياً طبيعياً، وإذا صحَّ ما قيل بأنَّ مَن أحب العرب أحب الإسلام وإذا أمكن أن يكون المرء مسلماً موطناً كما صرَّح مكرم عبيد باشا وزير مالية مصر إلى علماء الأزهر بأنَّه مسيحي ديناً ولكنه مسلم وطناً، فأستطيع أن أقول بدون تردّد بأني مسلم شعوراً وموطناً منذ نعومة أظفاري، وقد يكون لتأثير ذلك النصيب الأكبر فيما دفعني لأن أنفض عني غبار الميراث من الدين والعنصر وأن أسبر أغوار الحقيقة لأهتدي بأنوارها إلى المذهب الصحيح الحنيف؛ إلاَّ أني يجب أن أعترف في الوقت نفسه بأنَّ الميل الفطري لم يكن مستنداً على ما يقره الاستقراء العلمي والتمحيص الفكري والتجارب الشخصية، وما أعظم سروري الآن حين جاء الاستدلال العلمي الصحيح مؤيداً للميل الفطري فانتميت إلى الدين الإسلامي بدافع طبيعي غريزي وبتأييد علمي تمحيصي فأصبحت بذلك مسلماً شعوراً وموطناً وديناً.

وبدخولي في الدين الإسلامي إنما أشعر بأني أدخل في حياة جديدة وهي حياة الجامعة الإسلامية التي تحمل علم الإخاء الإنساني فيعيش كل مسلم فيها

مسلماً أخاً راتعاً في خضرة التحابب البشري السامي الذي لا يعرف حداً من حدود البسيطة ولا يلتفت لجنس من الأجناس أو نوع من أنواعها وقيود تفرقتها، وعليه فإذا قلت أني أدخل في حياة جديدة فإنما أعني أني أصبحت بدخولي في الإسلام أخاً لأربعمائة مليون مسلم من مختلف البلدان والمساكن ومختلف اللغات واللهجات ومختلف الأجناس والألوان في أرجاء عالمنا الواسع وذلك على حد قوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون**﴾ شعور ويا له من شعور إنساني سام يغمر كلية المرء ارتياحاً وانشراحاً واطمئناناً.

وإذا اطلع القارئ على ما سأورده من البحث في وضع اليهودية لا أشك أنه يشاركني الرأي بأن النفس الأبية التي تشعر بالشعور الإنساني لا ترضى لها حالاً كحال اليهودية المشبعة بروح التعصّب الديني والعنصري ولا بد لها أن تتمرد على هذا التعصب الذي حصر الشعب اليهودي في ضمن حدود ضيقة وحبس روحه وأبعده عن الإنسانية والشعور بالأخوة البشرية.





أخذت هذه الصورة على أثر الحفلة التكريمية التي أقامتها جمعية الهداية الإسلامية بالقاهرة، ويُرى فضيلة الأستاذ السيد محمد الخضر حسين رئيس الجمعية، وعن يمينه المؤلِّف وعن يساره السيد محمد الهاشمي عضو البعثة العراقية يحيط بهم صاحب العزة محمد حلمي بك وكيل التفتيش الإداري وبعض شباب الجمعية وشباب الجامعة المصرية.

ومن الغريب أن العقيدة السائدة بأن كل مَن تعلّم تعليماً راقياً أصبح ملحداً بطبيعة الحال قد تمكنت في أذهان شبابنا المثقفين بحيث أصبح الكثير يستغربون ويدهشون إذا أظهر أحد المتعلمين ظاهرة دينية أو تطرّق إلى البحث في هذا الموضوع، وأرى لزاماً عليَّ أن أبحث في مقدمتي هذه ولو بصورة مقتضبة فيما أورده بهذا الصدد أحد أصدقائي بعد أن أعلنت له رغبتي في اعتناق الإسلام إذ قال في كتابه: «إني لأشعر بخطورة رغبتك هذه لاسيما أنها جاءت في القرن العشرين في القرن الذي طغت فيه المادة وسادت فيه الملموسات وهي بنت فكر شخص عاش في بيئة أمريكية وإنه من حملة الدكتوراه».

وكأني بصاحبي قد يخيل له أنَّ مَن اكتسب علماً حديثاً وجب عليه طرح ناحية الدين جانباً والانصراف إلى ما في الحياة الدنيا من أعمال مثمرة ملموسة... وما أخطأ هذا الظن وأخطره على مصير مجتمعنا!... ما هو العلم؟! أو هل يقتصر على تدريبنا لإنشاء المشاريع العمرانية فحسب؟... أنا لا أنكر أن العلم قد نستفيد منه ونستعين به في مشاريعنا الفنية، ولكن أهي هذه الغاية من العلم؟! أليست هذه المشاريع واسطة لا غاية؟! إذن للعلم غاية سامية يرمي إليها صاحبه هي غير الأعمال الميكانيكية المادية، وما هي هذه الغاية؟! إنَّ الغاية المهمة من العلم الراقي هي بنظري تنبيه حس الطموح في صاحبه إلى استكشاف الحقائق والتدقيق والتمحيص سواء في مجالات التفكير الروحي المعنوي أو في منطقة الأعمال الملموسة لإدراك هذه الحقائق وإذاعتها، فيستفيد منها المجتمع في سبيل التعاون والتعاضد للنهوض بالإنسانية إلى أسنى درجات الكمال.

إن صاحب العلم الصحيح هو ذاك الذي يشعر بجهله كلّما زاد علماً وإيضاحاً وهو يتكبد كل ما ينطوي عليه هذا العلم والإيضاح من شقاء وعذاب فلا يفتر ولا يمل بعد اتضاح جهله فهو يسعى دوماً وراء الحقيقة مهما كانت مؤلمة مضحياً كل شئ في سبيل سعيه هذا.

وعليه إن المبدأ والشرف هما أساس عظمة الرجل العالم فتراه لا يبالي في تضحياته وراء مبدئه حتى ينال الهدف النبيل الذي يقصده، وهكذا نجد الرجل العارف لا يرضى لنفسه أن يكون مقلداً تابعاً بدون مناقشة ولا حساب كما تفعل الماعز والضأن فإذا طفرت إحداهن نهراً طفرت البواقي أيضاً، فتراه ينقب ويسعى ويحتمل كل مشقة في سبيله لإدراك الحقيقة وإظهارها خدمة للعلم والإنسانية. وإليك ما أورده الكاتب المعروف العلامة محمد كرد علي في هذا الصدد إذ قال: «العلم الصحيح هو الذي يبعث صاحبه على عمل النافع ولو كان في ذلك ضياع

مصلحته الشخصية، فلا يبالي حامله بغضب الرؤساء والزعماء ولا يستغويه رضا الغوغاء والدهماء. يتجشم المخاطر في نشر خاطر. ويركب كل صعب وذلول لإنارة مظلمات العقول».

وليعلم صاحبي بأني مدين لعلمي إذ له الفضل الأكبر فيما نبّهه فيَّ من الحس والطموح للسعي في التوصل إلى الحقيقة، وإظهار هذه الحقيقة بجرأة وإعلانها مهما كانت مؤلمة للبعض أو مضرة بنفسي.

ولا يخفى أن الثقافة الصحيحة إن لم يتناولها شيءٌ من الدرس الديني فهي ناقصة، لأنَّ الدين هو أساس التفكير الإنساني، وقد كان منذ نشأة العرفان أساساً لنشر الآراء والفلسفات المختلفة، كما أنه كان الدافع في الحياة البشرية للتدرج والتوغل في العلوم والتبحر في المعارف حتى كان في بعض الأحيان حافزاً للإنتاج العلمي العملي؛ وعلى الإجمال يصح القول بأن الدين بما فيه مما يتعلق بمستورات هذا الكون كان حافزاً لتوسيع نطاق التفكير الإنساني والتوغل في العلوم التي تدرجت في مجال الإنتاج الحديث، وسيكون للدين مقامه في العالم الإنساني ما دام الإنسان في الوجود.

وعندي أن من واجب المرء المثقف أن يكون له مذهب يؤمن به من صميم قلبه فيذود عن حياضه وينافح عن مبادئه، على أن يكون ذلك عن علم وتفكير فيقف على كل ما ينطوي عليه هذا المذهب من مبادئ وتاريخ وفلسفات وتعاليم يمكنه أن يقارنها مع تعاليم مختلف الأديان والمذاهب وإثبات تفوق المذهب الذي يصطفيه، إذ يجب أن لا يغرب عن البال أن الدين يمثل ثقافة، ففيه التاريخ وفيه المبادئ وفيه الاجتماع والسياسة والتشريع وفيه التعاليم والفلسفات وفيه يمكن درس أحوال المجتمع البشري وتطوره الفكري في مختلف الأدوار.

وليس على الإسلام أي خطر من ذلك لأنَّ الوقوف على حقيقته ومقارنة تعاليمه مع مبادئ الأديان الأخرى بصورة علمية مما يظهر سموه وقدسيته لاسيما وأنَّ الإسلام نفسه يشجع التفكير الحر والتحرير من قيود التقاليد، ولا يحبذ أن يقبله المرء ما لم يؤمن به الإيمان الصحيح **﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾**. وهذا ما يلائم مقتضى العلم الحديث. وعندي أن العلم الحديث هو بجانب الإسلام وتعاليمه لا ضده، وإذا كان للإسلام أن يستعيد مجده وهيمنته فسيكون ذلك بواسطة العلم نفسه الذي يعدّه الكثير عدو الديانات.

إن العلم الصحيح يسعى وراء الحقيقة ويأخذ بصاحبه إلى تعظيم الطبيعة

والفطرة وتقديس الخالق الأعظم والاعتصام بالعدل والألفة الإنسانية، وكل هذا موجود في الإسلام. . . فكم من المسلمين المتعلمين عندنا فكّروا في درس ميراثهم الديني وتمحيص ما ينطوي عليه من المزايا وأخذوا على عاتقهم عناء درس فلسفة الأديان بصورة علمية لكي يكتشفوا هذه الحقيقة؟!. . إني أعتقد بأن الرجال المتعلمين لا يكونون متعلمين بالمعنى الذي أراه ما لم يكونوا خصصوا قسماً من جهودهم العلمية في تنوير عقولهم من هذه الناحية الفكرية.

إن الشخص الذي له نصيب وافر من العلم يكون قد حطَّ من كرامة منزلته العلمية إن لم يختط له وجهة في الحياة ويسلك مذهباً يسير بموجبه حتى يحقق منهجه بما يستمده من القوة في الإيمان والمعتقد، فيكون كل ما اقترب من هدفه وجد ما يدفعه للسير إلى الأمام حتى يدرك ضالته.

إن العلم المادي وحده لا يكفي لأن يجعل من أبناء العرب رجالاً يخدمون أمتهم الخدمة المطلوبة. إذ من الضروري أن يكون هناك وجهة معينة توضع على أساس التفكير الصحيح في مجال المعنويات التي تتعلق بالمجتمع الإنساني وسعادته فتستغل المادة كواسطة لا كغاية لتحقيق الخطة مع الاستمداد من المعتقد الحنيف كل ما يحتاجه الرجال من فضيلة الأخلاق والإيمان والتضحية في سبيل ذلك.

إنَّ البلاد العربية تجتاز اليوم دوراً عصيباً هو دور الانتقال والتطور، وهذا الانتقال السريع مخيف ومريع فقد تضيع فيه الوجهة والمبدأ إن لم نتدارك الأمر بالتحلي بالصفات الإسلامية السامية التي تمدنا بالإيمان والقوة قبل أن تتغلب علينا مادة الغرب فتفرقنا وتنتزع من أبناء يعرب يقينهم وأمانيهم.

ولا بد للشبان المتعلمين أن يضعوا نصب أعينهم الحقيقة التاريخية ـ ألا وهي أن حرب الغرب ضد الإسلام لم تنته، تلكم الحرب التي أضرمها الغربيون المسيحيون بقصد قطع دابر المسلمين، ومحو شوكة الإسلام من البسيطة، وقد وجد الغربيون في نظرياتهم الإلحادية التي يبثونها في علومهم ويشجعونها بين المسلمين بوسائط مختلفة غير العلم خير دسيسة بل أنجع وسيلة لمحو الإيمان بالدين الإسلامي، وإذا قلنا الإيمان بالدين الإسلامي فإنَّما نعني بذلك قوة الإسلام التي يتربص لها الغرب باغياً إخمادها واضمحلالها؛ ويا ليت الشبان المسلمين يتروّون في مسلكهم ويدرسون الحقائق الدينية التاريخية قبل أن يبيعوا عواطفهم الدينية رخيصة للعدو المترصد.

لقد استضعف كثير من شبابنا أنفسهم أمام زخارف الغرب ومادته الخداعة فتصوروا الغرب وكل ما فيه رفيعاً سامياً وتخيلوا كل ما يرجع لشرقهم وضيعاً حقيراً، وهنا لا بد لهذه الطبقة المنورة من أن تسأل نفسها: هل تدع خداع الغرب يمضي بحريته، وهل تفسح المجال للغرب أن ينتقم من الإسلام بهذه الطريقة الشنيعة؟! إذ يجب أن لا يغرب عن البال أن الغربيين يعلمون حق العلم أنهم بإهمالهم دينهم لا يضيعون ما يستحق الأسف عليه، لاسيما بعد أن افتضح أمر النصرانية واتضحت حقيقتها لدى الكثير من العقلاء على ضوء العلم والتنقيب، ولكنهم يريدون إيقاع المسلمين بالشرك باستهوائهم لفكرة الإلحاد فيتخذونها واسطة لانتقامهم من الإسلام بإضعاف شوكته، فهل يفتح المسلمون لهم الطريق على عرضه ليحققوا رغباتهم بهذا العدوان الكمين وهذا الأسلوب الصامت؟!...

وأورد في ختام البحث عن العلم والدين أن يكون صاحبي على ثقة واعتماد بأن العلم الصحيح لا يناوئ الدين ولا ينفر منه وأن العلم الصحيح بالعكس يجعل صاحبه يتوغل في أغوار فلسفات الدين وتاريخها ليتوصل إلى الحقيقة في هذه الناحية، ومتى أدرك ذلك فيكون قد نال الهدف العلمي الذي يرمي إليه فلم يدعه يفلت منه؛ أمَّا الدكتوراه التي يتخيلها صاحبي رمزاً للإلحاد فقد كانت لنفسي دافعاً مستحثاً لفهم حقائق الأديان مما أيقظ فيّ الإيمان القوي في الدين الصحيح الذي اخترته، وقد فات صاحبي أن المرء لا يتغير والنفسية الإنسانية لا تتبدل فلا دكتوراه ولا أستاذية ولا مدنية ميكانيكية ولا أية قوة فكرية في العالم تبدل غريزة المرء وفطرته لأنَّ الإنسان خلق بطبيعته مخلوقاً دينياً، وهذا التاريخ دليل واضح، فمنذ نشأة المجتمع الإنساني يلعب الدين دوره على مسرح الإنسانية ولا تزال تقوى جذوره يوماً بعد يوم: إنَّ الدين لم يضمحل في الغرب إذ ثمة دلائل تثبت بأن جذوره تنمو نمواً صامتاً، وما للقارئ إلاَّ أن يراجع المقال الذي ترجمته مجلة الرابطة في أعدادها المرقمة ١٧ و٢٠ و٢٤ والذي يبحث في مصير الدين في كل من الدول الكبرى فيرى كيف أن النتائج هي في جانب ازدهار الدين لا اضمحلاله؛ إن ما يضمحل في الغرب اليوم ليس ما يتعلق بالغريزة الدينية وإنَّما الاضمحلال يشمل العقائد الخرافية والتلفيقات الدينية التي لا يقبلها العلم الصحيح، لأنَّ الأمم الغربية الحالية لم تحارب غير الدين المزيّف، ومع ذلك فنرى الغرب لا يزال راضياً بدينه الحالي على علاته حتى يجد ما هو أحسن مما لديه.



فؤاد الأول ملك مصر

محكمة مصر الابتدائية الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الإعلام الشرعي الصادر عن محكمة مصر الابتدائية الشرعية بتاريخ ٢٢ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ.

ولا بد لي من أن أقول في هذا الصدد أني لم أجهل ما سوف أُلاقي من التهم والنقد من قِبَل بعض اليهود أو النصارى أو غيرهم من طبقة المتعلمين الذين يتغنون بنغمة اللادينية أو المغرضين من كل الطبقات بنتيجة بحثي هذا، غير أني أشعر في الوقت نفسه بأن مَن كان له إيمان كإيمان المسلم المؤمن لا يخشى قذفاً ولا يردعه لوم، كما أني أشعر بما يترتب عليَّ من جراء إقدامي بدخولي في الإسلام من المسؤولية والواجب تجاه الخالق الجليل في هذا السبيل باحتمال كل ما يلحقني من أذى وتضحية بصبر وثبات خدمة للحقيقة والإنسانية، ولا بدع فهكذا كان بدء الإسلام في زمن محمد ﷺ وهكذا سيكون الحال في كل مجتمع قد ساد فيه الضلال والتعصب **﴿يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾**.

وعليه إني أتكل على الله وحده في بحثي التالي شارحاً فيه أوضاع الديانات التوحيدية بصورة علمية مبنية على الاستقراء العلمي والتجارب الشخصية عسى أن يجيب هذا البحث عن السؤال «لماذا اعتنقت الإسلام» جواباً رشيداً علمياً مرضياً، ورجائي إلى القارئ أن يرفع عن عينيه وقلبه غشاوة العصبية القومية والجنسية والدينية والاجتماعية حينما يتصفح البحث فيكون بذلك أقرب إلى أن يدرك المقام الإنساني السامي باعترافه بالحق والحقيقة مهما كان ذلك مؤلماً، إذ لا أشك في أن هناك مَن يكون ضميره مقهوراً بالموروثات فلا يحتمل بسط الحقائق على المكشوف بهذه الصراحة غير المقيدة، وعليه وجب علينا والحالة هذه أن نصفي ضمائرنا من أكدار الموروثات بالحكمة والمنطق ليتسنى لنا القيام بواجب خدمة الإنسانية وهو واجب يلزم أن يشعر به كل مَن فهم شيئاً من معنى الحياة الإنسانية والغاية منها. هذا ولعلي وفقت لبعض ما قصدت إليه من ذلك.

الفهرست

ON MY WAY TO ISLAM



في طريقي الى الإسلام

عـرفت الدكتور سوسـة في سنـة 1922 حين كـان طالبا في الجامـعة الاميريكية في بيروت، وقد وجدت فيه منذ ذلك الحين شابا مكباً على الدرس والمطالعة والبحث والتنقيب، حر الضمير، مستقلا في التفكير.

وقد علمتُ اذ ذاك انـه نشأ في بيئة عريقة، في عـروبتها واسلاميتها، هي بيئة الحلة. وقد شبّ وترعرع في جوّ عربي ونشأ نشأة عربية بحتة وهو يحمل منذ صباه عواطف جميلة نحو الاسلام والمسلمين.

وبعد رجوعه من سفرة قصيرة لـه الى اميركا خلال سنة 1935 وجـدت فيه ثورة نفسية عنيفة ضد المدنيّة الماديّة المجردة من روح الانسانية والعدل، وجدته يائسا من المدنية الغربيـة ومن مستقبلها مقتنعا أنها في حـد ذاتها لا تؤمّن السعادة للبشر. كما انه كان يحلل الأديان والمعتقدات البشريـة واحـدة واحدة بكل تجرد ونزاهة فيجد فـي كل منها نواقص ـ اما روحيـة او عمليـة ـ إلا الاسلام، فقد وجدته مقتنعا بأن الاسلام بما يحويه من مبادئ روحيـة ودساتير عملية هو افضل واسطة لخلاص البشرية وسعادتها، ولم تكن هـذه القناعة عاطفية لأول وهلة بل كانت قناعـة متأتيـه عـن درس وتفكير وبحث وتحليل استمر سنين طوالا.

فهو اذا اعتنق الاسـلام والحالـة هذه فانما يعتنقه سدّاً لحاجـة روحية شعر بها واجابـة لداعـي العقل والمنطق لا يبتغي من وراء ذلك مرضاة الناس ولا يهمه سخط الكثيرين عليه من ابناء جلدته واعمامه.

الدكتور محمد فاضل الجمالي




ISBN 9953-36-876-7
9 789953 368764

